@Tafsircenter

الرؤية الاستشراقية للوحي القرآني

نظرية النبوغ نموذجًا

دراسة تحليلية نقدية

يوسف عكراش

www.tafsir.net

مركز تفسير للدراسات القرآنية
Tafsir Center For Qur'anic Studies

المعلومات والآراء المقدَّمة هي للكتّاب، ولا تعبّر
بالضرورة عن رأي الموقع أو أسرة مركز تفسير

ملخص:

لقد حظي الوحي في الدرس الاستشراقي باهتمام بالغ، أَوْلاه جميع صنوف البحث والدراسة التي برزت معها مواقف وآراء عدّة تجاه الوحي القرآني، الشيء الذي جعل الوقوفَ على أفكار المستشرقين ووجهة نتاجهم العلمي ذا مركزية في الساحة المعرفية؛ من خلال تحليل ونقد ما اكتنفت هذه الرؤى في طيّاتها من شُبهات مغلّفة بأوعية وقوالب علمية حديثة الصبغة، ويأتي هذا البحث لمناقشة إحدى أهم نظريات الحركة الاستشراقية التي سعتْ لتفسير الوحي القرآني من خلالها، والمتمثّلة في نظرية النبوغ.

وقد انتظم هذا البحث في مدخل عام ومبحثَيْن رئيسَيْن، تسبقهما مقدّمة وتقفوهما خاتمة؛ فأمّا المقدّمة فقد خُصِّصت لبيان فكرة الاشتغال وسياقه، وإشكالية البحث، وأهدافه ومخطّطه. أمّا المدخل العام فقد جاء لبيان المضامين الكلية التي يحتاجها الباحث لتجلي معالم الطريق في فهم سير هذا البحث وما يدور في فلكه. أمّا المبحث الأول؛ فقد خُصّص لعرض نظرية النبوغ وتحليل ماهيتها مع الوقوف على مرتكزاتها. أمّا المبحث الثاني؛ فقد تولى نقد نظرية النبوغ من ثلاث زوايا، والمتمثّلة في الوحي، وشخصية النبيّ، وبيئة المستشرقين. ثم الخاتمة التي ذكرت جملة من المخرجات المتوَصَّل إليها في البحث في شكل نتائج.

مقدمة:

يُعتبر القرآن الكريم معجزةً خالدة إلى يوم الدين، فهو كلام الله المنزَّل على عبده ورسوله محمد ﷺ؛ الذي استطاع أن يقهر العرب إِذْ تحداهم بما عندهم من الفنون والعلوم؛ كالبلاغة والتعبير شعرًا ونثرًا، ورغم نزوله على مبادئهم وقوانينهم، بل تجاوز ما عندهم، وجاء باستعمالات لم تعهدها بيئتهم من قبل، فوقفوا أمامه موقف المستسلم، فلم يسع الناس بعدهم إلا الانكباب عليه فصار القرآن محطةَ اهتمام المفسِّرين، ومحورًا أساسيًّا للدارسين، قاصدين من ذلك بيان معانيه وأحكامه وأوجه إعجازه وصولًا إلى غاياته، ولم يتبادر إليهم أدنى شك في مصدريته الربانية، وأنه وحي من عند الله، وهذا لا ينفي وجود بعض التيارات التي لا تؤمن بذلك، بيدَ أن هذه التيارات لم تشغل حيزًا واسعًا.

وعلى نفس المنوال بقي القرآن الكريم على مَرّ العصور من صميم اهتمامات الباحثين في كلّ الأقطار، لكن بعد اتساع رقعة الإسلام في العالم بأسره وخاصة في الدول الغربية، وظهور النهضة الأوروبية والحركات الثقافية، برزت الحركة الاستشراقية في نهاية القرن الثامن عشر في عدد من الدول الأوروبية؛ كبريطانيا، وإيطاليا، وفرنسا، وروسيا...، والتي اعتنت ابتداءً بإنشاء كراسي علمية لتدريس اللغة العربية، لينتقل الأمر بعدها مباشرة لدراسة التديّن وما

يتعلّق به، وظهرت الجهود البالغة حول القرآن الكريم باعتباره المرجع الأول لدين الإسلام.

ومن أكبر الجهود المبذولة = اهتمام المستشرقين بالوحي القرآني بغرض دراسته، لكن ليست الدراسة هنا كما هو معهود في الدراسات العلمية الموضوعية، بل دراسات وأعمال علمية كبرى انطلقت من قاعدة موحدة مسبقًا أساسها نفي هذا الوحي، وأنسنته، ونفيه عن أيّ جهة غيبية؛ تحقيقًا لأكبر أهداف هذه الحركة، المتمثّل في فرض التبعية والركون ابتداءً، ثم تمكين باقي أهداف الاستشراق، مما جعلهم يبثّون أنواعًا عدّة من التشكيك حول نبوّة النبي عن طريق نفي الوحي بتفسيرات وتأويلات تستند إلى المناهج التجريبية والمادية، كان مِن أبرزها ردُّ فكرة الوحي للنبوغ والعبقرية الخاصّة بشخصية النبي لا غير.

إشكالية البحث:

من خلال ما سبق تظهر الإشكالية التي يروم البحث مقاربتها، والتي تتبلور في الأسئلة الآتية:

- ما المقصودُ بنظرية النبوغ في الرؤية الاستشراقية؟ وما أبرزُ أُسسها؟
- وما علاقة نظرية النبوغ والعبقرية بالوحي القرآني؟
- وما أبرزُ مواقف المستشرقين التي دعمت نظرية النبوغ في تطبيقها على الوحي القرآني؟

- وكيف يمكن نقد هذه النظرية من خلال ما هو متعارف عليه في الوسط العلمي النقلي والعقلي؟

وتبرز أهمية هذه الإشكالية في إدراك مواقف الرؤية الاستشراقية للوحي القرآني، والسعي لتحليل ونقد أهم هذه المواقف المتمثّلة في نظرية النبوغ، بل عُدَّت هذه النظرية لدى العديد من المستشرقين هي المعوّل عليها في نسف الوحي القرآني، ولا سيما أن جهود الحركة الاستشراقية بكلّ أطيافها لا تزال قائمة تجاه الوحي القرآني خاصة والتراث الإسلامي عامة إلى الآن.

أهداف البحث:

يهدف البحث بصورة رئيسة إلى بيان ما يأتي:

- بيان أنّ موضوع النبوّة والرسالات من أكثر المواضيع التي شغلت بال المستشرقين مما جعلهم يتناولونها بوفرة في أبحاثهم ودراساتهم الأكاديمية والمستقلة.

- إبراز تركيز المستشرقين على الوحي القرآني أكثر من غيره، وتكثيف الجهود بغية نفيه باعتباره هو المنطلق لتحقيق أهدافهم حول الإسلام.

- بيان أنّ هناك تلازمًا وترابطًا بين الوحي والنبوّات، فإثبات الوحي هو إثبات للنبوّة، ونفي أحدهما نفي للآخر.

- إبراز أنّ الأقوالَ والنظريات التي أتى بها المستشرق ليست كلامًا جديدًا خاصًّا به، بل طرحٌ متجدّدٌ في قوالب علمية لِما كان مطروحًا في العهد الجاهلي أو في فترات تنزّل الوحي.

- بيان أن اضطراب مواقف المستشرقين وتغيّرها بين الفينة والأخرى حول موضوع الوحي دليلٌ قاطع على عدم فهمهم لظاهرة الوحي وما يتصل بها.

- بروز ردود علمية ودحض للشبهات المتعلقة بالوحي القرآني داخل الحركة الاستشراقية.

- دحض نظرية النبوغ من خلال ما اكتنفه الوحي، ومن خلال شخصية النبيّ.

- بيان وجود بعض المستشرقين الأكاديميين المنصفين للوحي خاصة وللنبوّة والرسالة عامة، وإقرارهم بأن النبوّة والوحي لهما صلة بجهة غيبية، وهو حقيقة لا يمكن إنكارها من لدن الباحثين.

- استنتاج عُقم تفسيرات المستشرقين للظواهر الغيبية وعلى رأسها الوحي القرآني.

مخطط البحث:

وسعيًا للإجابة عن الإشكالية المطروحة، وتحقيقًا للأهداف المرجوّة؛ انتظم مخطط البحث في ثلاثة محاور رئيسة، تسبقها مقدّمة وتقفوها خاتمة؛ فأمّا **المقدمة**: فقد خصّصت لبيان فكرة الاشتغال وسياقه، وإشكالية البحث، وأهدافه... إلخ.

مدخل عام: الوحي القرآني وأبرز رؤى المستشرقين له:

أولًا: الوحي في النظر الإسلامي؛ تعريفه وأنواعه.

ثانيًا: الوحي في النظر الاستشراقي؛ أبرز الرؤى حوله.

المبحث الأول: نظرية النبوغ؛ المفهوم والمرتكزات:

المطلب الأول: نظرية النبوغ؛ المفهوم وتحليله.

المطلب الثاني: نظرية النبوغ؛ المرتكزات.

المبحث الثاني: نظرية النبوغ؛ نقد من خلال الوحي وشخصية النبي وبيئة المستشرقين:

المطلب الأول: نظرية النبوغ؛ نقد من خلال ما اكتنفه الوحي.

المطلب الثاني: نظرية النبوغ؛ نقد من خلال شخصية النبي.

المطلب الثالث: نظرية النبوغ؛ نقد من خلال بيئة المستشرقين.

أمّا **الخاتمة**: فقد تضمّنت جملة النتائج المتوَصَّل إليها في البحث.

وتجدر الإشارة أنّ البحث الذي بين أيدينا كان قد نُشر قبل سنتين مع مركز نماء على شاكلة مقالة يسيرة جدًّا تحت عنوان: (الوحي بين القرآن ونظرية النبوغ في الفكر الاستشراقي)[1]، وبعد العودة له تبيّن أنه يحتاج لتعميق أكثر، فخلَصتُ لإعادة نشره بعد العديد من الإضافات والمناقشات العلمية والفنية التي طالت مواطنَ كثيرةً فيه، وكأنّي بعمل جديد غير الأول.

(1) https://nama-center.com/Articles/Details/41134.

مدخل عام: الوحي القرآني وأبرز رؤى المستشرقين له:

يرمي هذا المدخل العام إلى بيان المضامين الكلية التي يحتاجها القارئ والباحث لتجلي معالم الطريق في فهم سير هذا البحث وما يدور في فلكه، وخاصة إدراك حقيقة نظرية النبوغ، والتحليل الذي سيطالها بالإضافة إلى فروع نقدها، مع العلم أن ثلّة من القضايا التي ستطرح في هذا المدخل سترافقنا طيلة مسيرة البحث هذه، وسينتظم هذا المدخل العامّ في أمرين:

أولًا: الوحي في النظر الإسلامي؛ تعريفه وأنواعه.

ثانيًا: الوحي في النظر الاستشراقي؛ أبرز الرؤى حوله.

وفيما يأتي بيان ذلك:

أولًا: الوحي في النظر الإسلامي؛ تعريفه وأنواعه:

لا شك أنّ مباحث الوحي ومتعلقاته قد كتبَ فيها الكثير، لكن المتأمل في مرتكزات البحث الذي بين أيدينا يجدها تُوجِب إيرادَ بعض مباحث الوحي التي تخدم أهداف البحث، بل وإعطاءَها أولويةً في الترتيب على باقي القضايا؛ لما لها من أهمية بالغة في تجسير المراد في الآتي من ثنايا البحث، مع الحفاظ على انسجام أركانه المتضمنة في عنوان البحث وأسئلته؛ لذلك سأورد أهم قضايا الوحي التي لها صلة مباشرة بأهداف البحث، والتي تتمثّل في الآتي: بيان مفهوم

الوحي في المنظور الإسلامي من حيث الاصطلاح، مع الوقوف على أهم الأنواع في ذات المنظور، وبيانها فيما يأتي:

مفهوم الوحي وأهميته في النظر الإسلامي:

لقد تعددت وتنوعت تعريفات العلماء في مختلف مصنّفاتهم، وكلّها تدور حول معنى واحد، وهو اتصال بين الله وأنبيائه ليبلغهم بما يريده من شرع أو كتاب، سواءٌ بواسطة أو بغير واسطة، ومن هذه التعريفات ما يأتي:

أن يُعْلِم الله تعالى مَن اصطفاه مِن عباده كلَّ ما أراد إطلاعَه عليه من ألوان الهداية والعلم، ولكن بطريقة سِرّيَّة خفيَّة غير معتادة للبشر، ويكون على أنواعٍ شتى، فمنه ما يكون مكالمة بين العبد وربه؛ كما كلَّم اللهُ موسى تكليمًا، ومنه ما يكون إلهامًا يقذفه اللهُ في قلب مُصطَفاه على وجهٍ من العلم الضروري لا يستطيع له دفعًا ولا يجد فيه شكًّا، ومنه ما يكون منامًا صادقًا يجيء في تحقُّقِه ووقوعِه كما يجيء فَلَقُ الصُّبح في تبلُّجه وسطوعه، ومنه ما يكون بواسطة أمين الوحي جبريل عليه السلام وهو من أشهر أنواع الوحي وأكثرها، ووحي القرآن كلّه من هذا القبيل، وهو المصطَلح عليه بالوحي الجلي[1]. وبتعبير آخر عام: «الوحي كلام الله تعالى المنزَّل على نبي من أنبيائه، وهو تعريفٌ له بمعنى اسم المفعول؛

(١) مناهل العرفان في علوم القرآن، محمد عبد العظيم الزرقاني، دار الفكر العربي، القاهرة، الطبعة الأولى ١٩٩٥م، ص٤٦.

أي: الموحَى»[١]. وقيل أيضًا أنه: «إعلام الله تعالى أنبياءه الشيء إمّا بكتاب أو برسالة ملَك أو منامٍ أو إلهام»[٢].

وتجدر الإشارة هنا أنّ الوحي حظي بتعريفات عدّة من كلّ الديانات المزعومة والمِلَل والنِّحَل على اختلاف اعتقاداتهم وأهدافهم المكنونة، ومن ذلك اليهود والنصارى حيث جاء عندهم في الكتاب المقدس ما مضمونه: «**تُستعمل هذه الكلمة للدلالة على النبوّة الخاصة بالمدينة أو الشَّعب، فالوحي هو الرئيس، أي أنه آية للشَّعب، فيراد بالوحي الإلهام، فيكون بهذا المعنى: هو حلول روح الله في روح الكتاب الملهمين، وذلك لإفادتهم بحقائق روحية أو حوادث مستقبلية لا يتوصل إليها إلا به**»[٣]. ومن خلال ما سبق لمفهوم الوحي واستعماله، يظهر بشكل جلي أن الوحي بهذا المعنى يختلف جذريًّا عن المفهوم المعهود للوحي القرآني، كما يضفي شقًّا باطنيًّا في الحلول والإلحاد، وهو طريق لتقمّص الصفاء الفطري والروحي وتمثّله مِن قِبل مَن لم يتصف به البتة؛ وعليه، فهو فتح باب للدجل الاجتماعي والتكهن والتحريف والتبديل؛ إذًا مفهوم الوحي عند اليهود والنصارى مغاير لطريق الوحي التي خاطب بها الحقّ

(١) مباحث في علوم القرآن، مناع القطان، مؤسسة الرسالة، بيروت، الطبعة الأولى ١٩٩٥م، ص٣٣.

(٢) إرشاد الساري لشرح صحيح البخاري، شهاب الدين القسطلاني، دار الفكر بيروت، لبنان ١٤٢١هـ= ٢٠٠٠م، (١/ ٨٣).

(٣) الوحي المحمدي، محمد رشيد رضا، مطبعة المنار مصر، الطبعة الثالثة ١٤٢٤هـ، ص٩٠.

سبحانه رسلهم وبلّغهم من خلالها. ويأتي الوحي عند اليهود أيضًا: بمعنى الإلهام أو انبثاق فكرة في ذهن النبي[1].

أمّا الحديث عن أهمية الوحي البالغة في حياة البشرية قاطبة وخاصّة المسلمين؛ فهو يمثّل حلقة وصل بين عالم السماء والأرض، بواسطة الأنبياء والرسل، فهو تكريم من الله سبحانه، وضرب أضرب عناية الخالق بخلقه، والوحي هو نظام يهدي البشرية قاطبة، ودستور ينظم شؤون حياتهم، ويرشدها إلى طريق الخير والحق والعدل في الدنيا والآخرة، قال جلّ وعلا: ﴿قُلِ ٱللَّهُ يَهۡدِي لِلۡحَقِّ﴾ [يونس: ٣٥]؛ فبعثة الأنبياء والرسل لطفًا منه جلّ وعلا لأنهم يرسّخون الفضيلة في مجتمعاتهم ويكملون نقص العقل الإنساني، وخاصة في مجال الغيب كما أن بعثة الرسل تقيم الحُجّة على الناس يوم القيامة وتقطع عليهم أعذارهم أمام خالقهم، ومنه فإنّ الوحي بمنزلة المنقذ للعباد من الظلمات إلى النور بعد إشرافهم على الهلاك، فهو بمنزلة الدليل القاطع الذي يهديهم لسواء الصراط بعد تيه طويل في صحراء الحياة.

(١) أنواع الوحي وآراء المستشرقين، عبد الجليل شلبي، ضمن بحوث مؤتمر السيرة والسنّة، ص١٨٨، بتصرف.

أنواع الوحي في النظر الإسلامي:

أمّا الحديث ضروب وحي الله -عز وجل- للرسل والأنبياء، فقد جاء في القرآن الكريم على ثلاث كيفيات[1]، ذكرتها الآية الكريمة: ﴿وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُكَلِّمَهُ ٱللَّهُ إِلَّا وَحْيًا أَوْ مِن وَرَآيِٕ حِجَابٍ أَوْ يُرْسِلَ رَسُولًا فَيُوحِيَ بِإِذْنِهِۦ مَا يَشَآءُۚ إِنَّهُۥ عَلِيٌّ حَكِيمٌ﴾ [الشورى: ٥١].

إلقاء المعنى في القلب، وقد يعبّر عنه بالنّفث في الرُّوع، قال ﷺ: «إنّ رُوح القُدس نفث في رُوعي: إنّ نفسًا لن تموت حتى تستكملَ رزقَها وأجَلَها، ألا فاتقوا الله وأجملوا في الطلب»، وهو الإلقاء في القلب والخاطر.

الكلام من وراء حجاب، وهو أن يسمع كلام الله -عز وجل- من حيث لا يراه، كما سمع موسى عليه السلام نداء ربه من وراء الشجرة، قال تعالى: ﴿فَلَمَّآ أَتَىٰهَا

---

(١) وتجدر الإشارة في هذا المقام إلى ضرورة التفريق بين أنواع الوحي الواردة في القرآن الكريم والتي تشمل كلّ الأنبياء والرسل، وبين صور الوحي التي أُوحِيَ بها للنبي محمد ﷺ، والتي تتمثل في الرؤيا الصادقة: وهي أول بدايات الوحي للنبي ﷺ، ثم النّفْث في الرُّوع: وهو ما يقذفه الله تعالى في قلب الرسول ﷺ، ثم مجيء جبريل إلى الرسول ﷺ في صورته الحقيقية التي خلقه الله عليها، وهذا حصل مرتين فقط، ثم مجيء جبريل عليه السلام إلى الرسول ﷺ فيشعر به مثل صلصلة الجرس، أي مثل صوت الحديد إذا حرك أو قُرِعَ، وهي أكثر الحالات شدة على الرسول ﷺ، وأخيرًا مجيء جبريل عليه السلام متمثلًا في صورة رجل يراه الصحابة رضي الله عنهم، كما هو في حديث: «بينما نحن جلوس».

نُودِيَ مِن شَٰطِيِٕ ٱلۡوَادِ ٱلۡأَيۡمَنِ فِي ٱلۡبُقۡعَةِ ٱلۡمُبَٰرَكَةِ مِنَ ٱلشَّجَرَةِ أَن يَٰمُوسَىٰٓ إِنِّيٓ أَنَا ٱللَّهُ رَبُّ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾ [القصص: ٣٠].

هو ما يلقيه ملك الوحي جبريل عليه السلام المرسَل من الله تعالى إلى رسول الله المصطفى، فيراه متمثلًا بصورة رجل أو غير متمثّل، ويسمعه منه أو يعي بقلبه ما يقوله الملك. وهذا أكثر الأنواع وأشهرها حدوثًا ووقوعًا معًا، ووحي القرآن كلّه من هذا القبيل، وهو المسمّى: الوحي الجلي، قال تعالى: ﴿نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ ٱلۡأَمِينُ ١٩٣ عَلَىٰ قَلۡبِكَ لِتَكُونَ مِنَ ٱلۡمُنذِرِينَ ١٩٤ بِلِسَانٍ عَرَبِيّٖ مُّبِينٖ﴾ [الشعراء: ١٩٣- ١٩٥].

وتُعتبر هذه هي الكيفيات الثلاث للوحي في التراث الاسلامي؛ وهي تمثل حقيقة ذلك الاتصال وكنهه بين الله -عز وجل- ومَن اصطفاهم من أنبيائه عليهم أفضل الصلاة والسلام.

ثانيًا: الوحي في النظر الاستشراقي؛ أبرز الرؤى حوله:

وبعد ما تقدّم من إيراد مدخل عام حول النظر الإسلامي للوحي، يأتي معنا النظر الاستشراقي للوحي، بتركيز يجلي معالم الطريق في هذا البحث، ويوضح أبرز محطاته، وذلك من خلال بيان مفهوم الاستشراق مع الوقوف على رؤى المستشرقين للوحي دون التعمق في مناقشتها؛ لِنَزلُف بعدها لصلب الموضوع الذي هو أَولى بالتفصيل والمناقشة أكثر.

مفهوم الاستشراق:

بدايةً لا بد من وقفة يسيرة حول مفهوم الاستشراق الذي تباينت الآراء حوله لاعتبارات عدّة أبرزها تبيان خلفيات وانتماءات المعرِّفين، وما يهمّنا في هذا المقام: هو إيراد بعض المفاهيم العامة للاستشراق تجسيرًا للمراد دون الخوض في اختلاف مفاهيمه ومراحل تشكّله وأنواعه ومدارسه، وعليه فإن الحركة الاستشراقية: هي تيار فكري غربي يُعنى بدراسة الشرق والشرقيين في مختلف البُنَى الثقافية حسَب وجهة النظر الغربية، حيث تشمل دراسة الدين والفكر الإسلامي، واللغة وآدابها، واتسعت رقعته لتشمل مختلف العلوم والفنون...، بل وصل الأمر كما في بعض كتاباتهم إلى دراسة عادات وأساطير الشرق، حاضرًا ومستقبلًا. ومنهم علماء أفذاذ فنوا أوقاتهم وأعمارهم لدراسة هذا الشأن، وقلّما يظهر منه منصف، وقد عرف إدوارد سعيد الاستشراق بقوله:

«هو المؤسسة المشتركة للتعامل مع الشرق بإصدار تقارير حوله، وبوصفه وتدريسه، والاستقرار فيه وحكمه، وهو أسلوب غربي للسيطرة على الشرق واستبنائه، وامتلاك السيادة عليه»[(١)]. وهذا التعريف جامع لعدة تعاريف، كما أنه صريح تجاه الاستشراق، كما أنه بيَّن مالك بن نبي: «إنّنا نعني بالمستشرقين الكُتّابَ الغربيين الذين يكتبون عن الفكر الاسلامي وعن الحضارة الإسلامية، ثم علينا أن نصنِّف أسماءهم في شبه ما يسمى بالطبقات على صنفين؛ أولًا: من حيث الزمن؛ طبقة القدماء مثل: جرير دور بياك والقديس طوماس الاكويني. والمحدَثين مثل: كاره دوقو وجولد تسيهر. ثانيًا من حيث الاتجاه العام نحو الإسلام والمسلمين لكتابتهم: فهناك طبقة المادحين للحضارة الإسلامية، وطبقة المنتقدين لها المشوهين لسمعتها»[(٢)].

ومن عظيم الأهداف العامة للحركة الاستشراقية توجيه الخطاب الإسلامي وإفراغه من مقاصده بغية تقوية المحورية الأوروبية والمركزية العرقية، ومن بين الأهداف الجزئية تشكيك المسلمين في تراثهم الإسلامي،

(١) إدوارد سعيد، الاستشراق، ترجمة الدكتور محمد عناني، دار رؤية للنشر والتوزيع، الطبعة الأولى، القاهرة، ٢٠٠٦م، ص٣٩.

(٢) مالك بن نبي، إنتاج المستشرقين وأثره في الفكر الإسلامي، دار الرشاد، بيروت، طبعة ١، ١٨٨٧م، ص٥.

وصدّهم عنه، وفرض التبعية، ومحاولة تبرير هذه الأهداف بالدراسات والنظريات التي تدّعي المنطق والعلمية والموضوعية.

أبرز رؤى المستشرقين للوحي القرآني:

لا شك أن غالب اهتمام المستشرقين بالوحي هو من قبيل الجهود الهدامة التي تسعى لتقويضه ونسفه باعتباره ركنًا ركينًا من بنيان الإسلام، ولا تزال حتى الساعة الجهود تترَى من قبيل هذه الحركة، محاولين إيجاد تفسير لظاهرة الوحي الربانية يتوافق مع أهداف الاستشراق التي تقدّم شيئًا منها، بغية إبعاد الوحي عن حقيقة صدوره الإلهي[1]. إِذْ نجدهم يضعون كلّ الآراء والمواقف والاحتمالات في التشكيك في مصدرية القرآن ومنشئِه، فتارة يقولون إنه حالة مرَضية أصابت النبي، وتارة يصفون الوحي بالشعوذة والتكهّن، وتارة بأنه تجلي الأحوال الروحي، أو أنه عاش تجربة دينية، إلى أن قالوا بنظرية النبوغ والعبقرية البشرية التي عاشها النبي ومَن سبقه من الأنبياء إِذْ تميزوا بكمال الرقي في العقل البشري، والتي هي أساس هذا البحث، ولكن نورد قبلها شيئًا من القول حول باقي المواقف تسييقًا للمراد وأَخْذًا لفكرةٍ حول أبرز آراء الحركة الاستشراقية تجاه الوحي، وهي كالآتي:

---

(١) القرآن الكريم في دراسات المستشرقين؛ دراسة في تاريخ القرآن، ونزوله وتدوينه وجمعه، مشتاق بشير الغزالي، دار النفائس، بيروت- لبنان، ١٤٢٩هـ= ٢٠٠٨م، ص٥٢، بتصرف.

القول بأن الوحي حالة نفسيّة ومَرَضيّة:

يعدّ القول بأنّ الوحي هو عبارة عن حالة مرَضية من أبرز النظريات في الفكر الاستشراقي، بحيث يرى أصحاب هذا المذهب أن الوحي ليس إلا مجرد تمويهات مرَضية وحالات صرعية ونوبات عصبية ذات طبيعة مميزة تعتريه بين فينةٍ والأخرى، معتمدين في ذلك صورة الوحي -صلصة الجرس- والحالات والأعراض التي كانت تنتاب النبي ﷺ وهو يتلقى الوحي[1]، ومستندين أيضًا لِمَا راج في البيئة العربية من لدن الكفار الذين كانوا ينعتون النبي عليه السلام بالجنون والصرع.

والمتأمّل في قولهم يجد أنهم سعوا لتفسير ظاهرة الوحي الخارج عن إرادة الإنسان وإدراكه، بإخضاعها للمناهج العلمية ومن ذلك المنهج التجريبي، في حين أنّ هذه المناهج لا يمكن أن تأتي بنتائج حقيقية في الظواهر الغيبية، ومما نتَج عن تطبيق هذا المنهج على الوحي هو وصف النبي عليه السلام بالحالة النفسية والمرَضية وخاصةً حالة الصرع لتشابه أعراضها مع ما ينتاب النبي عليه السلام متناسِينَ أنّ المصروع لا يذكر ما حصل معه أثناء صرعه ولا يتحدث عما يقع بعد صرعه، وواقع النبي ﷺ على العكس من ذلك، فهو يأتي بما يسمعه على أتمّ وجه وأدقّ تفاصيله بكُل يقين، ويُسأل عن الذي كان الوحي السبب في نزوله وما يتعلق به،

(١) تكوين النص القرآني؛ النبوة والوحي والكتاب، قاسم شعيب، الانتشار العربي، بيروت- لبنان، الطبعة ١، ٢٠١٦م، ص٤٣، بتصرف.

فيجيب عن كلّ الأسئلة الواردة من الصحابة الكرام، بل يزيد عن الإجابة بتوضيحات تختلف بحسَب طبيعة الأسئلة، في حين أن المصروع حقيقةً -أي المريض فعلًا- يحتاج بعد نوبة صرعه إلى فترة راحة لشدّة ما عاناه من تعب وألم مع فقدان الوعي وتعطيل الإدراك والشعور والحسّ بما يجري معه أو حوله؛ بل أكبر من ذلك، لا يستطيع أن يتحدّث المصروع عن أبسط ما حدث معه فضلًا عن التفاصيل الدقيقة، في حين أن النبي ﷺ بعد انتهاء نزول الوحي عليه يكون على حاله الذي كان عليه من قبل في قوة بدنه وعظمة فِكره.

القول بأن الوحي شعوذة وتكهُّن:

وذهب آخرون بأنّ الوحي ليس إلا شعوذة وتكهُّن، معتمدين في ذلك على الأمور الغيبية التي كان يخبر بها النبي عليه السلام وتقع عيانًا كما أخبر بها، وقد فاتهم العلم أن من صور الوحي الرؤيا الصادقة، فكان لا يرى رؤيا إلا وتأتي مثل فلق الصبح، وغيرها من صور الوحي التي حملَت في طياتها حقائق مستقبلية في عدة مجالات واقعية واجتماعية وعلمية، فلم يكلف المستشرق نفسه تصور الموضوع ثم الحكم عليه، بل اكتفى متقوِّلًا: «بأنّ الوحي عبارةٌ عن الأوهام والخداع والهوَس الناتج عن الحدس»[(١)]. وقد راحَ بعض المستشرقين إلى أبعد من ذلك حين اتهموا النبي ﷺ بعد دراسة سيرته، وقالوا أنه كانت له جلسات تكهّن وشعوذة

(١) القرآن الكريم في دراسات المستشرقين؛ دراسة في تاريخ القرآن، نزوله وتدوينه وجمعه، مشتاق بشير الغزالي، دار النفائس، لبنان، ٢٠٠٨م، ص٥٢.

في بعض منازل صحابته، واصفين الصحابة الذين كانوا معه في بداية الدعوة السرية بأنهم عملاء وخدم عنده، ومن هذه الجلسات ما كان يحصل خفية في دار الأرقم بن أبي الأرقم.

القول بتجلي الأحوال الروحية:

ومن أبرز الأقوال التي أثارها المستشرقون حول الوحي القرآني بغرض نفيه عن النبي ﷺ هو تقوّلهم بتجلي الأحوال الروحية للنبيّ ومَن كان قبله من الأنبياء، محاولين إضفاء طابع البحث والدراسة على زعمهم، فخلَصوا إلى قولهم: «لا نشك في صدق الأنبياء وإخبارهم عمّا رأوا وسمعوا، وإنّما منبع ذلك من أنفسهم، وليس هناك شيءٌ جاء من عالم الغيب الذي يُقال عنه أنّه عالم لا يمكن إدراكه وأنه عالم ما وراء الطبيعة. وإنّ النبيّ توصّل إلى الوحي بالانكباب على عبادة الله تعالى، والتوجّه إليه في خلوته في غار حراء، فزاد وقويَ هنالك إيمانُه، وسما وجدانُه وعلت مكارمه، فاتسع محيطُ فكره، وتضاعف نور بصيرته، فاهتدى عقله الكبير إلى الآيات البينات في ملكوت السماوات والأرض إلى هداية الناس وإخراجهم من الظلمات إلى النور، وما زال يفكر ويتأمل، ويعتزل الناس، ويتقلب بين الآلام والآمال، حتى أيقن أنّه النبيّ المنتظر الذي يبعثه الله لهداية البشر»[1].

(١) الوحي القرآني بين الفكر الإسلامي والفكر الاستشراقي والحداثوي، يعقوب حسن بريد الميالي، مجلة الدراسات الاستشراقية، العدد ١٧، ص١٤٠.

القول بأن الوحي تجربة دينية:

يعدّ القول بالتجربة الدينية هو أحد النظريات المطروحة من لدن المستشرقين لتفسير الوحي، بحيث يقول سورش: «في هذه التجربة يرى النبيّ وكأنّ شخصًا يحضر عنده ويحدّثه في أذنه وقلبه بمضمون الرسالة السماوية، ويكلّفه بإبلاغ التعاليم والأوامر الإلهية للناس، ويحصل للنبي علمٌ يقينيٌّ بهذا الأمر بحيث يشعر بالاطمئنان القلبي والشجاعة الفائقة التي تدفعه إلى استقبال جميع أشكال العناء والتعب والمرارة في هذا السبيل بهدف امتثال الأمر وأداء الوظيفة الإلهية»[(١)].

كما يؤكّد روّاد هذه النظرية بأن الذي يقابله النبيّ ويحسّ به هو الله سبحانه، وما دار في هذه المقابلة هو الوحي، لكن ليس الوحي بمعنى حمل الرسالة للعالمين في كلام، وإنما هو تفسير لما جرى في هذه المقابلة من أحداث، بمعنى آخر أن الوحي الذي يخبر به النبي عليه السلام هو تفسير وترجمة لتجربته التي يعيشها في لقائه وشعوره بالربّ، إِذْ لم يتلقَّ الوحي من الرب على هيئة كلام؛ لذلك يطلق عليها وسم التجربة الدينية، وخاصة أن المعهود على التجارب أنها لا تعتبر من قبِيل الكلام.

---

(١) الوحي القرآني بين الفكر الإسلامي والفكر الاستشراقي والحداثوي، يعقوب حسن بريد الميالي، ص٥٠.

ومَن تأمَّل هذه النظرية تبصّرَ إضرابًا آخر للمستشرقين حول تفسير الوحي؛ إِذْ سعوا في هذه النظرية إلى المزج بين المناهج المادية الوضعية وبين ما هو غيبي، لكن لم يسعفهم الأمر، فيقولون أن النبي عليه السلام يعيش تجربة خاصة ليست هناك قدرة لإدراكها أو معرفتها، وأنّ ما يقوله ليس هو التجربة في حدّ ذاتها، بل هو ترجمة كلام من عنده لِما أحسّ به خلال تجربته.

ومن أبرزِ رؤى المستشرقين أيضًا للوحي القرآني؛ هو القول بنظرية النبوغ والعبقرية، التي عدت لدى العديد من المستشرقين من أهم التأويلات المعوّل عليها بكثرة في نسف الوحي القرآني، وهي التي تأتي معنا عرضًا وتحليلًا ونقدًا في الآتي من المباحث.

المبحث الأول: نظرية النبوغ؛ المفهوم والمرتكزات:

لا مرية أن كلّ اهتمامات المستشرقين بالوحي هي من قبيل الجهود الهدامة التي تسعى لتقويضه ونسفه باعتباره ركنًا ركينًا من بنيان الإسلام، ولا تزال حتى الساعة الجهود تترَى من قبيل هذه الحركة، محاولين إيجاد تفسير لظاهرة الوحي الربانية يتوافق مع أهداف الاستشراق على مستويات عدة؛ لذلك سيركز هذا المبحث على بيان مفهوم نظرية النبوغ مع تحليل مضمونها، والمرتكزات التي تستند عليها، بحيث سينتظم هذا المبحث في مطلبين:

المطلب الأول: نظرية النبوغ؛ المفهوم وتحليله.

المطلب الثاني: نظرية النبوغ؛ المرتكزات.

وفيما يأتي بيانهما.

المطلب الأول: نظرية النبوغ؛ المفهوم وتحليله:

لم يفتأ المستشرقون يفترون الادعاءات حول الوحي القرآني، فكانوا ولا يزالون في حرب مع أنفسهم، يتقلّبون في أقوال يضرب بعضها بعضًا، فكلما أبرزوا قولًا جديدًا تمَّ تفنيده بأدلة نقلية وعقلية منطقية، بل أحيانًا تأتي الردود من المستشرقين أنفسهم تجاه بعضهم، وعلى الرغم من ذلك، ومما تقدّم ذِكْره مِن تقوّلات وآراء حول الوحي لم يكتفوا به فحَسْب بل زعموا أيضًا من خلال استنادهم أيضًا للمناهج الوضعية والمادية وإهمال المصادر الأصلية، بأن الوحي القرآني هو عبارة عن نبوغ وعبقرية بلَغها النبي بالمزج بين فكر عقله وتأمُّل قلبه،

ونفس الحال كان يحصل مع مَن قبله مِن الأنبياء، ثم شاع هذا الطرح في أوساط المستشرقين وغيرهم، فصار يصطلح عليه **بنظرية النبوغ**.

ونظرية النبوغ في الحركة الاستشراقية هي القول بأنّ الوحي وليدُ العبقرية ونِتَاجُها، وليس هناك وجودُ جهةٍ ما يتصل بها النبي ﷺ حتى يأتينا بالوحي منها، بل هو من عنديته لا غير، بعد إعمال عقله وقلبه في أحوال الناس وما هم بحاجة له في جميع مناحي الحياة، مع الاستفادة من اليهود والنصارى عند التقائه بهم، وما هذا إلا وصف للوحي وتعريف له بالاستناد للمقاييس الماديّة والأدوات الحِسيّة المعروفة في البيئة العلمية، قاصدين من ذلك التشكيك في الحقائق الغيبية المسلّمة في قوالب حِسّية حديثة تبهرُ القارئ والسامع، وتخول لهم تفسير ظاهرة الوحي بصور مختلفة، بحيث قالوا: «أن الأنبياء قبله ليسوا إلا أناسًا يمتلكون عقولًا مُشرِقة ومُشرِفة تهديهم إلى ما فيه صلاحهم وسعادتهم، فوضعوا القوانين وسنّوا السنن وشرعوا الشرائع؛ التي من شأنها أن تهدي الناس وتقيمَ حياتهم، وتواكب تطوّراتها وتحقّق عمارتها، فتميزوا بالعبقرية والنبوغ وصفاء الروح وقوة الإرادة، والإنسان المتصدّي لهذه الوظيفة هو النبيّ، والفكر الناتج والمترشّح من مَكَامِنِ عَقْلِهِ وَوَمَضَاتِ نبوغه هو الوحي، والقوانين التي يضعها ويسنّها لصلاح المجتمع هي الدين»[(١)].

(١) الوحي القرآني بين الفكر الإسلامي والفكر الاستشراقي والحداثوي، يعقوب حسن بريد الميالي، ص١٤٠، بتصرف.

ومِن أبرزِ المستشرقين الذين اهتموا بنفي الوحي عن النبي ﷺ هو المستشرق الألماني **ثيودور نولدكه**؛ إذْ يقول[1]: «**إنّ محمدًا حمل طويلًا في وحدته وحمل ما تسلّمه الغرباء، وجعله يتفاعل وتفكيره، ثم أعاد صياغته بحسَب تفكيره، حتى أجبره أخيرًا الصوت الداخلي الحازم على أن يَبرُز لبني قومه**»[2]. وفي هذا القول أيضًا إشارة أن هذا النبوغ الذي وصف به النبي ﷺ قد وظّفه في الاستفادة والنهل من كتب الديانات السابقة كاليهودية والنصرانية وخاصةً أنه كان يلتقيهم في بعض أسفاره أو زيارتهم له.

كما يقولون أيضًا: «**أن النبوغ عندهم هو أن النبي محمدًا استعان بعبقريته واعتمد على الكتب السابقة وما عندهم من أفكار، فاستفاد من الديانات السابقة عليه كاليهودية والنصرانية، وكان ذلك لاتصاله باليهود والنصارى اللذَين التقاهم في أسفاره وخلواته، كما كان على اطلاع واسع بمجريات أحداث**

(١) ثيودور نولدكه (١٨٣٦- ١٩٣٠): يعتبر هذا المستشرق كبير المستشرقين الألمان ومرجع كل المستشرقين في دراسة القرآن وما يتعلق به، وُلد في هامبورغ، أتقن العربية، والعبرية، والسريانية، حصل على الدكتوراه عام ١٨٥٦م وهو في سن العشرين في تاريخ القرآن. ثم صار مدرسًا للتاريخ الإسلامي في جامعة غوتينغن عام ١٨٦١، وأستاذ التوراة واللغات السامية في كييل عام ١٨٦٤.

(٢) تاريخ القرآن، ثيودور نولدكه، ترجمة: جورج تامر، مؤسسة كونراد أدناور، بيروت، الطبعة الأولى، ٢٠٠٤م، ص٤.

التاريخ للرسل والأنبياء، فبعبقريته ورؤيته النقدية استطاع أن يغربل كل ما تلقّاه ويُبقِي ما يخدم تصوراته»[(١)].

وحاصل مذهب المستشرقين في القول بنظرية النبوغ؛ هو أنّه يتميز بين أفراد الجنس البشري أشخاصٌ يملكون فطرةً سليمة وعقولًا مشرقة ليست كباقي العقول، تهديهم إلى ما فيه صلاح المجتمعات وسعادة البشرية جمعاء، فيضعون قوانين فيها مصلحة الناس أفرادًا ومجتمعات، وعمران الدنيا. والإنسان الصالح في نظر الأنبياء هو الذي يستجيب لهذا النبوغ والعبقرية، والدين بصفة عامة هو نتاج تفكير النبي، وإعمال نبوغ عقله هو الوحي، ومن ثم يترجمه إلى تشريعات وسنن وأوامر ونواهٍ بحسَب الأشخاص والوقائع والأحداث.

كما يُرجِع **نولدكه** وغيرُه من رواد نظرية النبوغ =الوحيَ إلى هذا التفسير من خلال ما عُرف عن النبي عليه السلام قبل الدعوة، «واصفًا له باستعمال أساليب وطرق لتنشيط قدراته من خلال اختياره لفترات معينة للعزلة والاعتكاف، حيث كان ينعزل في غار حراء مدة شهر في العام ولسنوات عدة، كما كان يختار الليل للاعتكاف الروحي والتعبدي، وسكون الليل -كما يقول نولدكه- ينشط قدرات الإنسان، كما يلجأ للصوم ويمتنع عن الأكل والشرب والجنس لفترات معينة،

(١) تكوين النص القرآني؛ النبوة والوحي والكتاب، ص٤٦- ٤٧.

وهي أيضًا التجربة التي تساعد على تحقيق النشاط العقلي من باب التعويض عن الحرمان المادي والجسدي»[(١)].

ومن جهة أخرى، فإن تفسير الوحي عند المستشرقين بما تقدم، هو قديم جديد، بمعنى أن كلّ ما جاء به المستشرق اليوم قد سبقه له العرب الذين عاصروا الوحي بصورة أو بأخرى، مع العلم أن سبب كفرهم لم يكن بما وصفوا به النبي ﷺ من أوصاف كثيرة (مجنون، شاعر، يعلّمه بشر، المرض...)، ولكن سبب كفرهم هو جحودهم واستكبارهم عن تقبل رسالة الإسلامية، وقد صرّح بذلك صناديد الكفر في أكثر من موطن وواقعة.

وبعبارة أكثر وضوحًا، فإن ما روّجه المستشرق ليس إلا صدى لما كان في البيئة العربية التي عارضت النبوّة والرسالة الخاتمة، و«إن تفسير النبوّة بالنبوغ ليس تفسيرًا مُسْتَجَدَّ الذِّكْر -كما تقدّمت الإشارة-، وإنْ صِيغ في قالب علمي جديد فإنّ جذوره تمتد إلى عصر ظهور الإسلام حيث كان العرب الجاهليون يحسّون بجاذبية القرآن وبلاغته الخلّابة»[(٢)]، فيردّون هذا الاعجاز الخالد إلى

(١) الوحي عند المستشرق تيودور نولدكه؛ قراءة نقدية لآرائه في كتابه تاريخ القرآن، محمود علي سرائب، ضمن مؤلف جماعي بعنوان: بحوث وقراءات نقدية في كتاب تاريخ القرآن لتيودور نولدكه، من إصدارات المركز الإسلامي للدراسات الإستراتيجية، الطبعة الأولى ١٤٤٣هـ= ٢٠٢٢م، (١/ ١٦٩)، بتصرف.

(٢) الإلهيات على الهدى؛ الكتاب والسنّة والعقل، حسن مكي العاملي، مؤسسة الإمام صادق، الطبعة الخامسة، ١٤٢٣هـ، (٣/ ١٣٢).

الشِّعر -كما تقدمت الإشارة آنفًا- الّذي كان الحرفة الرائجة عندهم، ويتبارز ويتنافس فيه النوابغ منهم والعباقرة، فكانوا يقولون كما جاء في التنزيل الحكيم في قوله تعالى: ﴿بَلْ هُوَ شَاعِرٌ فَلْيَأْتِنَا بِئَايَةٍ كَمَآ أُرْسِلَ ٱلْأَوَّلُونَ﴾ [الأنبياء: ٥]. ويردّ عليهم القرآن الكريم نافيًا نفيًا تامًّا أنّ ما جاء به هو وحي قرآني من لدن الحق سبحانه بقوله: ﴿وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَاعِرٍۚ قَلِيلًا مَّا تُؤْمِنُونَ﴾ [الحاقة: ٤١]. وبقوله: ﴿وَمَا عَلَّمْنَٰهُ ٱلشِّعْرَ وَمَا يَنۢبَغِى لَهُۥٓۚ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ وَقُرْءَانٌ مُّبِينٌ﴾ [يس: ٦٩]. بل حتى إذا كان شِعرًا في بيئة عربية خالصة فلماذا لم يأتوا بمثله.

وإنّ العودة إلى هذه النظرية في طرحٍ حديث ونمط علمي مستجد محفوف بأدلة وبراهين في زعمهم أنها علمية قائمة على المناهج المادية والتجريبية، مع الاهتمام بها ونشر لوازمها بين جُمُوعِ المسلمين ينبع من الشعور بالصغار والهوان أمام كلّ ما هو جديد وحادث في أضراب الحضارة المادية في شتى أنواعها، بل جعل هذا الأمر العديد من الحداثيين يتبنّى نسبةً من هذه الأقوال والدفاع عنها، وفي الحقيقة أن هناك أمورًا وحقائق ذات صلة وثيقة ببروز هذه النظرية وشيوعها، أهمها:

أولًا: تحقيق أعظم أهداف الاستشراق المتمثّل في وقف المد الإسلامي في صمت ونعومة، وحصر الإسلام داخل حدود ضيقة لا يتجاوزها أبدًا، ثم تجزئة المسلمين فعلًا وفكرًا، وتشويه صورة الإسلام التاريخية بدءًا بمصادره الأصلية

للحيلولة دون مستقبل مُشْرق للإسلام والمسلمين بتبعية وركون، تحت لواء تفاسير مادية طبيعية ومناهج علمية لا تقرّ أصلًا بعالم الغيب.

ثانيًا: انبهار العديد أمام هذا الكمّ الهائل من الاكتشافات والاختراعات في مجال الطبيعة والمادة؛ مما جعل الفكر الاستشراقي وغيره لا يتسع لقبول كلّ أمر خارج عن الحدود المادية والملموسة. حتى إذا أتاهم شيء من قبيل الغيبيات وقفوا أمامه وقفة الجاحد المتكبر بدعوى المادة والتجربة والملموس، متناسين أن الوحي في حدّ ذاته من جنس الغيبيات، وقد حمل في طياته العديد من المؤشرات العلمية المادية البحتة في عدد من مجالات العلوم الحقة، التي أدركها الغرب قبل العرب، لكن خلفياتهم تقف حدًّا أمام الإقرار والإيمان بها.

ثالثًا: تبني بعض الحداثيين من العرب ذوي الأصول المسلمة لمثل هذه الآراء نتيجة تعلقهم المفرِطِ بالحضارة الغربية ناسين أو متناسين أصول شخصيتهم الإسلامية وهويتهم الدينية التي بنت الحضارة قبل زمن بعيد، بحيث لجؤوا هم كذلك إلى تفسير عالم الغيب والنبوّة والدِّين والوحي بتفسيرات ملائمة للأُصول المادية والتجربة، مع التجاسر على المصادر الإسلامية الأصلية، حتى يَجْبُروا مركّب النقص في أنفسهم من جهة، ويصيحوا على رؤوس الأشهاد بأنّ أُصول الدين لا تخالف الأصول العلمية الحديثة من جهة أخرى.

وعمومًا فإنّ نظرية النبوغ هي حصر للوحي في حدود المادة ونسبتها للذات البشرية للنبي ﷺ بغرض تخطئة الوحي ونسفِ مضمونه؛ لأن المعهود أنّ كلّ منسوب للبشر فيحتمل الصواب ويحتمل الخطأ؛ لذلك تجرأ المستشرقون والحداثيون تجرؤًا كبيرًا في دراسة الوحي القرآني وما يتعلق به باعتباره منسوبًا لذات النبي ﷺ، لكن الناظر في مرتكزات هذه النظرية ولو لم يصرّح بها المستشرقون، ألفاها مرتكزات بعيدة عن الموضوعية في دراسة الوحي، حتى تتمخض عنها هذه النتائج التي بنى عليها المستشرق والحداثي الكثير من القضايا المطروحة للنقاش وذات صلة بالوحي، وهذا عين التَّلَفِ المنهجي في دراسة غيبيات الإسلام وخاصة الوحي، وسيتضح هذا أكثر في ثنايا المطلب الآتي للحديث عن مرتكزات نظرية النبوغ.

المطلب الثاني: نظرية النبوغ؛ المرتكزات:

لقد تباينت آراء المستشرقين ومواقفهم تجاه الوحي القرآني، ولكن كلّها تسعى لنفي الوحي عن عالم الغيب وربطه بعالم الشهادة وخاصةً بذاتية النبي ﷺ، إمّا بإنكار الوحي قطعًا بنسبته للنبي، أو الإبقاء على معناه وربطه بذات النبي مع إفراغه من المحتوى والمضمون، وأقل ما يُقال في هذه الاتجاهات والأساليب أنها أوجه لعملة واحدة، تشقّ طريقها لنسف الوحي وتقويضه.

ومن تأمل هذه الآراء والتفسيرات لظاهرة الوحي، وخاصةً التي تَقَدَّم شيءٌ من الحديث عنها بالإضافة إلى نظرية النبوغ التي نحن بصدد مناقشتها =ألفاها تقوم على أُسس ومرتكزات بعيدة كلّ البعد عن الموضوعية العلمية والحياد العلمي، رغم ادعائهم المعقولية والمنطقية في دراسة الوحي من خلالها، ذلك أن طرقهم في دراسات القرآن الكريم وما يتعلق به -الوحي- تكون محطة استثنائية في أعمالهم العلمية، بحيث ينطلقون من مرتكزات مغلفة بقوالب علمية خدّاعة، ويمكن إجمال كلّ المرتكزات التي تنبثق منها نظرية النبوغ وغيرها من التفسيرات بمعانيها الحقيقية في الآتي: اعتماد المقاييس المادية والمناهج الوضعية، مع إهمال المصادر الإسلامية الأصلية، وفيما يأتي بيانها:

اعتماد المقاييس المادية والمناهج الوضعية:

لقد اعتاد المستشرقون في دراسة القرآن وما يتعلّق به، بالسَّيْر على المناهج المادية الوضعية، ومن ذلك تمسّكهم بالمنهج الافتراضي الذي مفاده، هو الابتعاد عما أقرّه الأصل والعقل والمنطق، والأخذ بافتراضات يمليها الهوى بحيث تكون أقرب وأدنى إلى الكذب[1]، وقد مارسَ المستشرق هذا المنهج على الوحي، بحيث لم يسعهم تقبّل أصل الوحي، فسعوا إلى افتراضات وتأويلات كثيرة للوحي -كما تقدّم- مما نتج عنه تضارب في الأقوال حول ذات الظاهرة المدروسة، ولم يقف الأمر عند الافتراض في تفسير الوحي فقط، بل تجاوز ذلك لتُبنى على هذه الافتراضات مداخل ورؤى تعدّ أخطر في الطعن تجاه مصدرية القرآن.

ومن المناهج الوضعية أيضًا التي يوظفها المستشرق في تفسير ظاهرة الوحي، المنهج الإسقاطي بحيث «يفسر الوقائع والنصوص بأمرٍ دأب المستشرقون على توظيفه في أبحاثهم القرآنية، ونعني بالمنهج الإسقاطي، إسقاط الواقع المعيش على الحوادث والوقائع التاريخية، إنه تصوّر الذات في الحدث أو الواقعة التاريخية، وهكذا يتم تفسير الظواهر وَفق المعتقدات لدى

(١) مناهج المستشرقين البحثية في دراسة القرآن الكريم، الدكتور/ حسن عزوزي، بحث منشور على الإنترنت، ص٢٥، بتصرف.

الإنسانية، بحيث المستشرق الباحث عندما يضع في ذهنه صورة معينة يحاول إسقاطها على صور ووقائع معينة فيخضعها إلى ما ارتضته مخيلته وانطباعاته»[1]، وهذا نفسه ما وقع فيه المستشرق عندما فسّر الوحي بالنبوغ والعبقرية، جراء حمل معاني الوحي السامية، وتنزيلها منزلة أقوال العظماء من الفلاسفة والعلماء، فعدّوا النبي ﷺ نابغة من النوابغ مثلهم، وما هذا إلا عقم في الفهم وضرب من أضرب الجهل.

إنّ هذه المناهج على سبيل التمثيل والتي استندت لها الحركة الاستشراقية، وغيرها من المناهج الأخرى التي لا تخرج عن دائرة العقل المحض والوضع والتجربة كمنهج الأثر والتأثر، ومنهج النفي، لا تنسجم قطعًا مع الوحي القرآني الذي يفوق إدراك هذه المناهج ومحدّداتها، ومن جهة أخرى إذا كان الغرب قد أخضع الكتب المقدّسة عنده رغم التحريف العظيم الذي طالها في مختلف محطات تاريخها، ودرس ما فيها وَفق هذه المناهج وأسعفهم ذلك حسَب زعمهم، فإنّ الوحي القرآني يختلف تمامًا عن هذه الكتب التي عبثت بها العقول، إذ الوحي لا يزال غضًّا طريًّا لم يشبه أدنى تغيير أو تحريف؛ لذلك فإنّ الإيمان بالغيب حتمية لا محيد عنها لمن رام دراسة الوحي القرآني.

(١) مناهج المستشرقين البحثية في دراسة القرآن الكريم، الدكتور/ حسن عزوزي، ص٣٣.

إهمال المصادر الإسلامية الأصلية:

لطالما زعم المستشرقون الاستناد للمصادر الإسلامية بالإحالة عليها في دراساتهم وأعمالهم العلمية، والحقيقة أنه ليس كلّ مَن أحالَ على شيء أو أشار إليه يسلَّم له به، وقد دأب على هذا الأمر المستشرق الألماني ثيودور نولدكه، حيث كان يحيل كثيرًا على المصادر الإسلامية، ولكن لا يسلَّم له بما أحال عليه بكلّ حال من الأحوال، إِذْ على ذلك مجموعة من الاعتراضات العقدية والعلمية المنهجية(١)، ولكن ما نود الإشارة له في هذه المسألة هو إهمال المصادر الإسلامية الأصلية في بناء نظرية النبوغ، والتي يتجلّى معها أكثر تفنيد زعم المستشرقين بالاعتماد على المصادر الإسلامية في تفسيرهم لظاهرة الوحي القرآني بالعبقرية.

ومَن تتبع صنيع المستشرقين في التعامل مع المصادر الإسلامية، وخاصة في طرح هذه النظرية وبنائها، ألفى هناك ضربًا من الإهمال الممنهج المقصود لهذه المصادر؛ لأنّ من المعهود أن قيمة الدراسات العلمية تُبنى على المصادر التي ترتكز عليها باعتبارها المادة الأولية للوصول للمراد، لكن لما كانت المادة الأولية هي طريق للحقيقة العلمية، رام المستشرق الإبداع في إهمال هذه المادة

(١) ينظر: كتاب تاريخ القرآن للمستشرق الألماني تيودور نولدكه، ترجمة وقراءة نقدية، الدكتور رضا محمد الدقيقي، الطبعة الأولى، الدوحة ١٤٣٠هـ= ٢٠٠٩م، ج١.

الأولية -مصادر إسلامية- وهذا خلل منهجي فاضح ونتائجه أفضح، ومن صورة هذا الإهمال الممنهج الذي ارتكزت عليه نظرية النبوغ ما يأتي:

- انتقاء عدد محدود من الكتابات الإسلامية وخاصة في علوم القرآن، وخاصة ما يزعم المستشرق أنه يؤيد نظرية النبوغ.

- عدم الاهتمام قطعًا بصحة المرويات رغم ضعفها وانقطاعها في كلّ الأحوال.

- انتقاء عدد محدود جدًّا من كتب السيرة، والتركيز على حياة النبي وخاصّة قبل البعثة.

- الاهتمام البالغ بكتب العلوم الوضعية -كعلم النفس وعلم الاجتماع- لتفسير ظاهرة الوحي بالنبوغ.

- توليد الاستشهادات من كتب التاريخ والأدب التي تخدم غايات المستشرقين في تأويل الوحي.

- الاحتفاء بكتابات المستشرقين وخاصّة الكتابات الأوّلية المتعلقة بالوحي والقرآن وشخصية النبي ﷺ.

وهذه أبرز المرتكزات التي انبنت عليها نظرية النبوغ عند المستشرقين في تفسير الوحي، والملاحظ أنها مرتكزات لا تمتّ لدراسة الوحي بصِلَة، فقط هي نزعة ذاتية وأيديولوجية تجسّدت في هذه المرتكزات، والأصل في بناء الأسس

والنظريات والتفسيرات هو التجرد والموضوعية والحياد، لكنّ المستشرقين على عكس ذلك؛ فيضعون الأُسس التي تخدم الأهداف المرجوة على مستويات عدة، ثم ينطلق الباحثون منهم في ثنايا العلوم والمعارف لانتقاء ما يخدم هذه الأهداف بتكيّف متعسّف مع الأسس المزعومة.

المبحث الثاني: نظرية النبوغ؛ نقد من خلال الوحي وشخصية النبي وبيئة المستشرقين:

يعدّ اعتناءُ الباحثين والدارسين بقراءة التراث الإسلامي بصفة عامة من منظور الآخر وزاوية رؤيته، ولا يُكتفى بالكتابةِ والتنظير في انعزال عما يفكرُ فيه الآخر ويعتقدُهُ تجاه تراثنا =أمرًا ذا أهمية بالغة من عدة جهات، أبرزها: الدينية والعلمية؛ أمّا الدينية فتتجلّى في حماية التراث الإسلامي من معاول الهدم والتشكيك، التي لم تَعُد تَخفى غاياتها على أحد، أمّا من الناحية العلمية، فإنّ النقد حياةُ العلوم، ومحورُ دوران حركية البحث، وبدونه تنكمش المعارف وتُصاب بالضمور، لتفقد بوصلة سيرها فضلًا عن تطويرها، إذ النقد سُنّة العلم تتجسد في ملاحم وصراعات ومساجلات يتمخض عنها كنه المعرفة وحقيقتها.

وهذا النقد هو ما تسعى هذه الدراسة قصده من خلال اعتماد وجهة العقلية والنقلية من جهة والإشكالات المنهجية من جهة أخرى، بالإضافة إلى أساليب الاستدلال والبحث التي يستند إليها المستشرق في بناء النظرية المزعومة التي سيطرت على ذهنية الإنسان الغربي ورؤيته إلى الإسلام؛ إِذْ هذا الأخير -المستشرق- لا يَعتبر القرآن كتابًا عظيمًا مقدّسًا، وهذا صنيع جُلّ المستشرقين، وخاصّة في الاستشراق المعاصر لا يُولون اهتمامًا لا بالتوراة ولا بالإنجيل ولا بالقرآن الكريم، ويتجلى ذلك من خلال تعاملهم وأقوالهم وخاصة تجاه القرآن؛ إِذْ ليس من العقل أن نناقش المستشرق باعتماد نمط واحد

فقط، وإنما يلزم توظيف عدد من أوعية النقد، وسينتظم هذا المبحث في ثلاثة مطالب:

المطلب الأول: نظرية النبوغ؛ نقد من خلال ما اكتنفه الوحي.

المطلب الثاني: نظرية النبوغ؛ نقد من خلال شخصية النبيّ.

المطلب الثالث: نظرية النبوغ؛ نقد من خلال بيئة المستشرقين.

وفيما يأتي بيانها:

المطلب الأول: نظرية النبوغ؛ نقد من خلال ما اكتنفه الوحي:

بدايةً ينبغي العلم أنه لو كان لهذه النظرية المزعومة نصيبٌ من الحقّ، وأنّ كلّ الأمور مَرَدُّهَا إلى العالم المادي لم يَبْقَ شيء من الاعتقاد بالغيب إلّا شيء واحد، وهو الاعتقاد بوجود الخالق البارئ، وأمّا ما سوى ذلك، فكلُّه بأكمله نتاج الفكر الإنساني الخاطئ بالنتيجة والمبنيّ على الحِسّ والمادة، كما لا يبقى إذعان بشيء ممّا أتى به الأنبياء المرسلون من الأصول والحقائق في الدنيا والآخرة. وهذا في الواقع ضرب من الجحود العلني تجاه الدين، لكن بصورة لا تخدش العواطف الدينية.

لذلك مَن تأمل نظرية النبوغ والعبقرية وباقي النظريات التي سلفت الإشارة إليها، وجد أنّ منطلقها هو العملُ على نفي الغيب ابتداءً، ثم بناءُ أقوال وآراء على ما هو مشاهد؛ لذلك فقلّما يناقش المستشرق عقليًّا صور الوحي الثابتة أو أنواعه أو خصائصه، وإذا ناقش شيئًا منها، فإنه يأخذ المعالم بغية استغلالها وتوظيفها في خدمة آرائه وأهدافه.

وهذا الوحي الذي يسعى المستشرق لنفي أصوله وإخراجه من صبغته الإلهية ومصدريته الربانية، وتجنب مناقشته عقليًّا ومنطقيًّا؛ لِما يكتنف في ثناياه من ضروب الأخبار القديمة جدًّا والمستقبَلة، وما حوى من أصناف العلوم، وخاصة ما اكتشفه وأثبته العالم الغربي نفسه، وهذا أول منافذ نقد نظرية النبوغ من خلال الآتي:

الإخبار بالأمم والحضارات القديمة:

يُلْفِي كلُّ ناظر في الوحي؛ أنّ هناك ضربًا كبيرًا من الأخبار والمعاني النقلية التي حكاها النبي ﷺ والتي لا يمكن للعبقرية والنبوغ الإحاطة بها البتة، ومن ذلك المسائل الواردة في القرآن ذات الطابع التفصيلي والتحليلي الدقيق عن الأمم السابقة، والقرون الأولى للجنس البشري على هاته الأرض، حتى الأرقام والحسابات تعجز وتقف حائرة عن تفسير هذه التفاصيل والجزئيات التي جاء بها الوحي القرآني دون غيره، حتى يَسُوغَ لهم القول بأن هذا الأمر مردّه إلى الذكاء الخَارِقِ.

كما لم يعهد في ساحة النوابغ والعباقرة من كانت له عبقرية ترتبط بالماضي البعيد، بل حتى مَن عُرفوا بالعبقرية في دراسة التاريخ القديم لم تكن لهم تفاصيل حول ما يصلون له من مكتشفات الحضارات والأمم السابقة، بل كانت تتضارب أقوالهم ومخرجاتهم على ذات الحدث المبحوث عنه، رغم الاستعانة بأحدث التقنيات والآليات في الوصول إلى الأمم السابقة، والقرون الأولى للجنس البشري على هذه الأرض.

وما قدّمه الوحي في هذا المقام ليس شيئًا عاديًّا، بل هو إعجاز تاريخي تحقق منه الكثير، حيث أورد على سبيل التمثل مصيرَ عددٍ من الحضارات وحصل معهم وكيف كان هلاكهم، «ففي الأردن مثلًا أثبتت الحفريات أنها

كانت منطقة زلازل راح ضحيتها أقوام من السابقين هم قوم لوط...، كما أثبت القرآن الكريم أن فرعون موسى بقيت جثته لتكون آية لمن بعده، وما يزال يراها العابرون، كما أثبتت الكشوف العلمية الحديثة أيضًا وجود أهل الكهف ومدائن نبي الله صالح، وأيضًا منطقة انشقاق البحر لموسى عليه السلام»[1]، وغير ذلك مما حمل الوحي من «أخبار تفصيلية من الأمم والجماعات والأحداث التاريخية السابقة لزمانه ﷺ بمدة بعيدة في أغوار التاريخ، بل أكبر من ذلك أن حمل أسماء تفصيلية للرجال والأمم والقرى»[2].

ومن الأسماء الدقيقة التي جاء بها الوحي من أعماق التاريخ القديم، وبقيت سرًّا إلى وقت قريب، اسم (هامان) الذي جاء به الوحي القرآني في ستة مواضع، الذي تبيّنَ بعد «حلّ رموز الكتابة الهيروغلوفية قبل ٢٠٠ سنة، ظهر اسم هامان في الكتابات المصرية القديمة، ولم تُعرف حقيقته بالضبط إلا في القرن التاسع عشر، الذي تم فيه حلّ رموز هذه اللغة، ليظهر أنّ هامان كان

(١) الإعجاز التاريخي في القرآن والسنّة، الدكتور/ محمد بورباب، مقالة على موقع مجلة الإعجاز الدولية، على الرابط الآتي بتصرف:
https://bourbab.com/%d8%a7%d9%84%d8%a7%d8%b9%d8%ac%d8%a7%d8%b2-%d8%a7%d9%84%d8%aa%d8%a7%d8%b1%d9%8a%d8%ae%d9%8a-%d9%81%d9%8a-%d8%a7%d9%84%d9%82%d8%b1%d8%a2%d9%86-%d9%88%d8%a7%d9%84%d8%b3%d9%86%d8%a9/

(٢) الوحي عند المستشرق تيودور نولدكه: قراءة نقدية لآرائه في كتابه تاريخ القرآن، محمود علي سرائب، (١/ ١٧٠ - ١٧١)، بتصرف.

شخصًا مقرّبًا من فرعون، ومسؤولًا عن مقالع الأحجار في مصر، وفِرَق البناء»[1]، ومَن تدبر الوحي القرآني ألفى أنه وصف هامان باسمه في أكثر من موضع وأنه كان في عهد موسى عليه السلام وفرعون، كما بيَّن قرابته من فرعون، وبيَّن أيضًا أنه مسؤول عن البناء؛ لذلك نرى في الخطاب القرآني التماس فرعون من هامان بناء صرح، وغيرها من الأخبار التي يطول ذكرها، ويستحيل قطعًا الوصول إليها من خلال العقول المشرفة والعبقرية المفرطة، وتم الوقوف عليها علميًّا ضمن المكتشفات الأثرية والتنقيبية.

وهكذا يتجلى لنا ما اكتنفه الوحي في طيّاته من إخبار تاريخي بالغ الدقة عن العصور مختلفة الحضارات قبل الإسلام، كما أخبر بجوانب مما عاشته هذه الحضارات والأقوام سواءٌ على المستوى الديني أو الاجتماعي أو الاقتصادي، الشيء الذي يوحِي بأن هذه الأنباء والأخبار التي كان يخبر بها النبي عليه السلام والتي ليست إلا جزءًا من النبوّة والمتمثل في الوحي القرآني، والذي لا يسع الناس إلا الاعتراف بجهته الخارجة عن إرادة البشر وعقله ونبوغه، كما لا يمكن للعباقرة والنوابغ والحذّاق مهما بلغ عِلمهم وإدراكهم، أن يَقدِروا على الإخبار بمثل هذه الأخبار اليقينية، بل منها ما توصّل له العلم الحديث كما أَخبرَ

(١) المعجزات القرآنية، هارون يحيى، ص٧١- ٧٢، بتصرف، (وباقي معطيات الكتاب غير متوفرة).

به النبي عليه السلام. وعليه، فلا يمكن ردّ هذا الأمر إلا لجهة واحدة تفوق كل الإدراكات التي يدركها الإنسان بإعمال عقلهِ وقلبهِ، ألا إنه الوحي الإلهي.

الإخبار بالوقائع والأحداث المستقبلية:

وكما حمل الوحي في ثناياه أخبارًا بالغة الدقة عن الأمم الغابرة، فقد حمل أيضا قسمًا آخر يوحَى به للنبي، وهو في مقابل نوع الإخبار الأول، فقد عُرف بالثابت الصحيح أن الأنبياء عمومًا -صلوات الله وسلامه عليهم- يُخبرون به أقوامهم، يتمثل في الإخبار بالأنباء المستقبَلة والقادمة سواءٌ قريبة من عصر الإخبار أو بعيدة عنه، والتي مما لا يُشَكُّ في تحَقّقها أبدًا، ومن ذلك على سبيل التمثيل وليس الحصر، «خبر أن الروم سيغلبون الفرس بعد بضع سنين، حيث أخبرنا التاريخ أن دولة الروم كان محتلة ولا أحد كان يتوقع أن تعود لها الكرّة وتنتصر على دولة الفرس العظيمة في وقتها»[(١)]، «وبعد ما يقارب سبع سنوات من نزول الوحي بالحديث عن الروم، وفي الشهر الثاني عشر من عام ٦٢٧م، وقعت معركة حاسمة بين الإمبراطوريتين الفارسية والبيزنطية -الروم-، وفي

(١) أثر الاستشراق في الفهم الحداثي لمباحث تأريخ القرآن وعلومه، كاظم جواد الحكيم، من إصدارات المركز الإسلامي للدراسات الإستراتيجية، العراق، الطبعة الأولى ١٤٤٣هـ= ٢٠٢١م، ص١٤٤، بتصرف.

هذه المرة هُزِم الفرس هزيمة غير متوقعة، وبعد أشهر قليلة توصّلَ الفرس إلى معاهدة مع الروم أجبرتهم على إعادة الأراضي التي استولوا عليها»[1].

ومن ذلك أيضًا انتصار المسلمين في معركة بدر، وقضية موت أبي لهب على الكفر وأنه لن يعتنق الإسلام، الشيء نفسه الذي حدث بعد عشر سنوات من نزول الوحي بسورة المسد، التي قرّرت وحسَمَت في مصير أبي لهب...، وغيرها من الوقائع والأحداث المستقبَلة التي أخبر بها الوحي، ووقعت كما أخبر بها، والسؤال الذي يطرح نفسه في هذا المقام هو: هل يجرؤ النوابغ والعباقرة على ادّعاء مثل هذه الأمور المستقبلية في أيّ شكل من أشكال؟

وحقيقةً، إنه لا يستطيع أحد أيًّا كان التجرؤَ على أحداث المستقبل القريب أو البعيد، والإخبار بها عن وجه اليقين الذي لا يشوبه شيء من الشك أو التردد، كما لم يُعْهَد في فَلَكِ النوابغ والعباقرة الذين أقرّ لهم العالم بذلك الإخبارُ بشيء عن المستقبليات بالتفاصيل الدقيقة كما هو حال الوحي القرآني، بل حتى ما يسمى في عصر العلم والمعرفة بعلم المستقبليات أو علم الاستشراف، لم يصل في استشرافه للمستقبل وتنبئه للمستوى الإخباري الذي تمتع به النبي عليه السلام أثناء فترة الوحي، رغم الاستعانة في العصر الحديث بأدوات وآليات فاقت العقل البشري بمئات المرات، إلا أنهم لم يأتوا بجزء يسير بالمقارنة مع ما أخبر به

(١) المعجزات القرآنية، هارون يحيى، ص٦٨، بتصرف.

النبي عليه السلام، حتى إذا كانت لهم اجتهادات واستشرافات مستقبلية فإنها لا تكون على وجه اليقين، بل تكون على وجه الاحتياط والتردّد مخافةَ عدم وقوع ما استشرفوه، فتتدنّى مصداقيتهم ومكانتهم كعلماء مستقبليات وسط مجتمعاتهم شيئًا فشيئًا إلى أن يصبحوا أشخاصًا عاديين كباقي البشر غير ما كانوا عليه سابقًا.

وعليه، فكيف لعبقرية ونبوغ قبل أربعة عشر قرنًا، أن تأتينا بالأخبار على جهة القطع واليقين دون أدنى ريبٍ أو شكٍّ؛ إذْ هذا الأخير لا يكون إلّا من جهة غيبية غير معتادة لدى الناس، كما أنها خارجة عن نطاق إدراكاتهم وحدود عقلهم، وهي الوحي الذي يفرض على منتقديه الإيمان به من خلال ما حمل في طياته من أدلة قطعية وبراهين منطقية، تبرز لكلّ مَن اتصف بالموضوعية العلمية وتجرَّد من خلفياته الفكرية والمذهبية، وأقبل على دراسة الوحي بصدق العلم؛ ولتجلّت له حقائق هذه الظاهرة الربانية المعجزة، التي خصّ اللهُ بها من اصطفاهم من خلقه، لكن السعي لتحقيق أهداف الاستشراق، يُنتِج كِبرًا علميًّا يحُول بين العقول والحقيقة العلمية.

بثُّ جملة من العلوم والمعارف:

لقد اهتم الوحي القرآني بالناس وواقعهم من جهة، كما اهتم بالعلم والمعرفة من جهة أخرى، ولطالما دعا الوحي إلى إعمال الفكر والنظر في الطبيعة والكون المحيط بالإنسان لإدراك الحقائق العلمية التي لا يمكن لبشر أيًّا

كان أن يأتي بها، ولو بلغ نبوغه ما بلغ، لكن المستشرق ينفي الوحي جملةً وتفصيلًا، ولا يرى منه إلا ما يخدم آراءه الضيقة، متناسين أن مما أَخبر به الوحي، قد تضمّن مؤشرات منهجية علمية كونية للخليقة والتكوين حين يتحدث على سبيل المثال عن التخليق الكوني للإنسان والنفس فيما تعرض له سورة الشمس من متقابلات كونية متفاعلة...، كما يقدم معطيات علمية دقيقة في أسرار الكون -كما سيأتي- ولطائفه التي تم اكتشافها حديثًا[(١)] ...وغيرها من المواطن التي بثّ فيها الوحي جملة من المعارف والعلوم، بل لا نبالغ إذا قلنا أنك لا تجد علمًا إلا وذُكر منه شيء في الوحي، عن طريق بث مؤشرات علمية بحتة دقيقة[(٢)].

ومما يمكن استحضاره في مقام المكتشفات العلمية قضية نشوء الكون من العدم التي أخبر بها الوحي، وهو ما يُعرف بالانفجار العظيم، «الذي حدث في وقت قصير جدًّا، وهذا الانفجار الكبير يُثبت أن الكون خُلق من عدم، وكلّ دوائر العلم الحديث تتفق على أن الانفجار الكبير هو التفسير العقلاني الوحيد المقبول عن بداية الكون، وقبله لم يكن هناك شيء، اسمه المادة أو الطاقة أو

(١) أبستمولوجيا المعرفة الكونية إسلامية المعرفة والمنهج، محمد أبو القاسم حاج حمد، دار الهادي، الطبعة الأولى، ١٤٢٦هـ= ٢٠٠٤م، ص٨٨.

(٢) ينظر: الاكتشافات العلمية الحديثة ودلالاتها في القرآن الكريم، الدكتور/ سليمان عمر قوش، دار الحرمين، الدوحة، الطبعة الأولى ١٤٠٧هـ= ١٩٨٧م.

الزمن، كما أثبت المِجسّ الحَسَّاس على متن القمر الاصطناعي كوب الذي أطلقته وكالة الفضاء الأمريكية (ناسا) عام ١٩٩٢، استطاع أن يلتقط ما يدل على هذا الانفجار، وأن الكون خُلق من عدم»[١].

ومن المكتشفات العلمية أيضًا التي تكذِّب وتفنِّد نظرية النبوغ لدى المستشرقين، قضية تمدّد الكون وتوسّعه، التي أشار لها الوحي قبل أربعة عشر قرنًا، «بل حتى بداية القرن العشرين كان الاعتقاد السائد أنّ الكون ثابت؛ ليكتشف العالِم الفيزيائي الروسي، والمتخصّص بالعلوم الكونية البلجيكي جورج لومتر نظريًّا أن الكون في حركة دائمة وأنه يتمدد، وهذه الحقيقة العلمية التي جاء بها الوحي منذ زمن، أُثبتت من خلال المراقبة للسماء في عام ١٩٩٢م، بواسطة التلسكوب، ليؤكد العالِم الفلكي الأمريكي إدوين هابل أن النجوم والمجرات أنها في حال تمدد مستمر بعد الانفجار الكبير إلى الآن»[٢].

وغيرها من المكتشفات العلمية التي أخبر بها الوحي وتم التوصّل إليها في العصر الحديث، والتي إذا ما قُوبلت بنظرية النبوغ ستظهر سخافتها وهزال مرتكزاتها. ومما أَخبر به الوحي تحقّقًا: قضية انفصال السماوات عن الأرض، قضية الأفلاك وكروية الأرض، والسقف المحفوظ، وطبقات الغلاف الجوي،

(١) المعجزات القرآنية، هارون يحيى، ص١٠، بتصرف.

(٢) المعجزات القرآنية، هارون يحيى، ص١٢- ١٣، بتصرف.

والسماء ذات الرجع، ووظيفة الجبال وحركيتها، ومعجزة الحديد، وسنة الزمن، ونسبة الأمطار وتكوينها، بالإضافة إلى الرياح اللواقح، والبحران اللذان لا يختلطان، وظلمات البحار وأمواجها الداخلية، وهوية الإنسان وبصماته...إلخ.

وعمومًا فإنَّ قِسْمًا من الوحي تم الوقوف عليه علميًّا واكتشافهُ حديثًا من لدن علماء العالم قاطبة والاتفاق عليه، وقسم آخر في طور البحث والاكتشاف وهو أيضًا مما أخبرنا به الوحي، وبيَّن حقائقه وحِكَمَهُ، وضَرْبٌ ثالث لم يصل له البحث العلمي الحق إلى الآن. وعليه، فلا يستطيع النوابغ بالإجماع الإحاطة بمثل هذه الحقائق والمعاني التي تم التوصل إليها حديثًا بعد مئات السنين من الإخبار، وهي مجرد نقطة من يَمٍّ مما أخبر به الصادق المصدوق، وعجيبٌ أنّ من يكتشف هذه العلوم المبثوثة في الوحي، هم غير المسلمين، بمعنى أنهم من جنس المستشرقين وأنهم تجمعهم تقاطعات وقواسم مشتركة كثيرة، ورغم ذلك لا تزال دعوى إبطال الوحي ونفيه قائمة، ولا يُلتفت لهذه الحقائق والمعارف إلا نادرًا، الشيء الذي يدلّ على خبث السريرة تجاه الإسلام، بغية نسف أبرز أعمدته، ألا وهو الوحي القرآني.

وفي ظلّ ما تم التوصل إليه في شتى جوانبه؛ كالاكتشافات العلمية والمنهجية التي برزت في ثنايا خطاب الوحي، كيف يفسِّر هذا النبوغ الذي لا يزال مستمرًّا لأربعة عشر قرنًا ويخبر عن مؤشرات منهجية علمية كونية دقيقة جدًّا، يتوصل لها بين الفينة والأخرى؟

وختامًا لهذا المطلب، فإذا ما سلّمنا جدلًا أنّ الوحي القرآني وما تضمّنه من أحكام وحِكم، وما اكتنف من أخبار عن الأمم الغابرة، ومن أنباء عن المستقبل القريب والبعيد، وكذلك ما بثّه من مؤشرات علمية ومنهجية دقيقة في شتى العلوم وخاصة الكونية الحقّة، فلماذا انقطع هذا النوع من النبوغ على مَرّ أربعة عشر قرنًا؟ ولم يبرز نبوغ فردي أو جماعي يأتينا بمثل ما أتى به الوحي القرآني، أو ينسف هذا الشقّ من الوحي.

بالطبع لا وجود لهذا النبوغ ولن يوجد لأمرين، **أولًا**: لم يُعهد على شخصية علمية وعبقرية اتصفت بكلّ هذه الأمور تُخبِر عن الماضي وتُنبِئ بالمستقبل، وتؤصِّل للعلوم الكونية العظيمة، وتنظِّم شؤون الناس وتدبّر مختلف مناحي حياتهم... إلخ، بل الآن وفي عصر المعرفة تجد الرجل العالم -فردًا أو جامعة- ينفق حياته بأكملها لبحث جزئية معينة، فيهلك دون إتمامها، وهذا لا يخفى على المستشرقين أنفسهم، وحاصلٌ في واقع حياتهم العلمية، فأنّى لهم بهذا العلم العظيم، والإدراك الجليل الذي جاء به الوحي القرآني، مع العلم أنّ ما عند الخلق من العلم إلا أقلّ القليل.

ثانيًا: أن لا وجود لهذا النوع من النبوغ، ودليلنا في ذلك هو الوحي القرآني نفسه، الذي أخبرنا في أكثر من موضع بما معناه: أنه لا يستطيع أحد أيًّا كان أن يأتي بمثل هذا الوحي أو يقدر على دحضه، وهذا محقّق وواقع؛ إِذْ عجز الجنس

البشري عجزًا كاملًا قديمًا وحديثًا بمقابلة الوحي ومقارعته، مع وجود النوابغ والعباقرة طرًّا في كل عَصر ومِصر.

المطلب الثاني: نظرية النبوغ؛ نقد من خلال شخصية النبي:

وبعد نقد هذه النظرية من خلال ما اكتنفه الوحي نفسه من أمور يستحيل لبشر الإحاطة بها إجماعًا، ننتقل للشقّ الثاني الذي يزيد أكثر في بيان عدم صحة هذا الادّعاء، وأنه ليس إلّا ضربًا من أضرب التفسير القائم على الذاتية المتجرد من الموضوعية العلمية لتحقيق مَرامٍ معينة، وسيتضح الأمر أكثر في هذا الطرح عن مناقشة شخصية النبي ﷺ وكيف تعامل معه الوحي ومع أقاربه، مع الإشارة لواقع العرب حينئذ ومعرفتهم للنبي قبل البعثة وبعدها، في مقابل ما أتت به مضامين نظرية النبوغ النظرية، من أجل رصد الفروق التي تنسف هذا الطرح المزعوم، وذلك من خلال الآتي:

ليس لشخصية النبي حظ في الوحي:

بدايةً، لا يقول عاقل بأن النبي ﷺ ليس ببشر، بل هو كذلك؛ إِذْ يعتريه في حياته وشخصيته ما يعتري كلّ الناس من محطات مؤثرة سواءٌ لفرح أو حزن أو إعجاب بشيء أو كرهه، وما كان على شاكلة ذلك مما يعبر في حياة الناس ويترك أثرًا بالغًا، ورغم ذلك لا نجد أثرًا لشخصيته ﷺ في خطاب الوحي، رغم ما مرّ به «من أحداث مؤلمة على المستوى الشخصي لم تكن متعلقة بالدعوة، بل تندرج ضمن عوارض الحياة ونوازل الدهر التي تعرض لكلّ البشر، وذلك مثل وفاة أبيه، وأمه، وجده عبد المطلب، وعمّه أبي طالب، وزوجته خديجة، وستة

من أبنائه، كلّ هذا لا نجد له أثر في القرآن»[(١)]، بل بقيَت للوحي مكانته القدسية، ووظيفته التي من أجلها اختار اللهُ نبيَّه، ولم يكن في الوحي حظّ للنبيِّ حتى يبدي ما اعتراه في مختلف محطات حياته، وخاصّة الأحداث كموت عمّه وزوجته وأبنائه، ورغم وصفه لتلك السّنة بعام الحزن، إلا أنه ترك الأمر خارجًا عن ماهية الوحي وغايته.

بل حتى اسم النبي ﷺ لم يذكره الوحي القرآني إلا أربع مرات، ولم يرد شيء من الوحي يسمِّي أبويه وأزواجه وأبناءه، في حين أورد الوحي ذكر ثلّة من الأنبياء ﷺ، فذكر موسى ﷺ مائة وخمسًا وثلاثين مرة، بل تجاوز الأمر ذلك عند عيسى ﷺ لذكره باسمه ونسبه إلى أمه في عدد من ثنايا خطاب الوحي القرآني، أمّا اسم النبي محمد ﷺ لم يشغل حيزًا بارزًا في القرآن، ولو كان الوحي نبوغًا من عنده كما يزعم المستشرقون لخصّص قسمًا له ولأحواله، كما هو شأن النوابغ على مرّ الأزمان وفي كلّ المجالات، بالحرص على تخليد أسمائهم، بل قد يُسمَّى الشيء الذي نبغ فيه الشخص باسمه ليخلد ذكره معه.

وعليه، فليس لشخصية النبي ﷺ حظّ في الوحي سواءٌ قبل البعثة بذِكْر الأحوال الشخصية لطفولته وما يتعلّق بها، أو بعد البعثة بالوقوف على أبرز

(١) كتاب تاريخ القرآن للمستشرق الألماني تيودور نولدكه: ترجمة وقراءة نقدية، الدكتور/ رضا محمد الدقيقي، (٢/ ٨٦).

أحداث حياته وخاصّة التي أثّرت فيه كما تقدم الإشارة، بل حتى أقرب الأقارب لم يكن لهم حظّ كذلك، إلا ما كان من جهة الإيمان؛ لأنّ الوحي اهتم بهم من جهة الإيمان، وأنهم من السابقين الأوّلين في الإسلام، ورغم ذلك لم يسلموا من العتاب في بعض المواطن، وهذا كلّه فيه دليل على أن الوحي القرآني ليس من لدن شخص معين أيًّا كان ولم يقصد شخصًا بعينه، بل أتى خطابًا موجهًا للبشرية جمعاء بتحقيق العبودية الخالصة لله وعمارة الأرض بالقسط والعدل.

والنبي ﷺ هو أول من أدرك كنهَ الوحي والغاية التي جاء لتحقيقها من خلال اصطفائه لأداء هذه الغاية عن طريق تبليغ الوحي، الشيء الذي جعله ينبذ شخصيته وراء ظهره، لتظلّ ذاته البشرية صامتة في الخطاب القرآني لأداء وظيفة التبليغ بعناية فائقة للغاية، وصدق القائل: «ستظل ذاته في الخطاب القرآني صامتة، الذي لن يذكر الأحداث الخاصّة في تاريخه، فلن نجد أيّ صدى لآلامه وخاصة عندما يفقد أكرم زوجة وأفضل عمّ -كما تقدّم- مع عِلمنا بما كان لديه من الحنوّ النبوي تجاه هاتين الشخصيتين»[(١)].

وما تقدّم في هذا الطرح ما هو إلا نقطة من يمٍّ، تدلّ عن انعدام الذاتية المحمّدية وطابعها الشخصي في الوحي، حين لا يذكر أحواله وأهم أحداث

(١) الظاهرة القرآنية، مالك بن نبي، ترجمة: عبد الصبور شاهين، دار الفكر، دمشق- سوريا، الطبعة الرابعة ١٩٨٧م، ص١٦٣.

حياته، حتى ما ورد على قلّته القليلة فإنه جاء بصورة المفرد المخاطب، الذي ليس له من الأمر شيء إلا التسليم وفعل ما يُؤمر به، الشيء الذي يجعل نظرية النبوغ في هوان مستمر أمام هذه المناقشات وغيرها، التي لم يُجِب عليها المستشرق، بل حاول التخلّص منها ابتداءً بنفي المصادر الإسلامية في التأسيس لهذه النظرية، وانتقاء ما يخدم غايته.

عتاب الوحي للنبي ومخالفة اختياراته:

سبق الحديث أنّ الوحي ليس فيه حظّ لشخصية النبي عليه السلام أو انعكاس لانطباعاته الذاتية، وهذا فيه ردّ على من زعم أن الوحي من عنده، أمّا ما نودّ مناقشته في هذا الطرح؛ أنّ الوحي لم يكتفِ بتواري شخصية النبي عليه السلام في الخطاب القرآني، بل عاتبه أمام الملأ ولامَهُ في العديد من المواطن، وخالف رغباته ومتمنياته ﷺ، الشيء الذي يدل بجلاء -أكثر بالإضافة لِما تقدّم- أن الوحي خارج عن ذاتية النبيّ، وليس له تجاه الوحي إلا السمع والطاعة.

وتجدر الإشارة أن المواطن التي عاتب فيها الخطابُ القرآني النبيَّ عليه السلام كثيرة لكن سنقتصر على بعضها، كفى من القلادة ما أحاط بالعنق؛ لأنّ الغاية من هذا الطرح هو إدراك المضمون العام الذي نستنتجه من هذا العتاب، هو أن الوحي ليس من عنده، ومن المواطن التي عاتب فيها الوحيُ النبيَّ عليه السلام، حين أبدى موقفه «(طعمةُ بنُ أُبَيْرِق) الذي كان منافقًا، واشتكاه بعض الصحابة، ولم

يعلم الرسول ﷺ بسرقته، وجاء قومه يدافعون عنه أمام الرسول ﷺ ويتهمون غيره، فصدّقهم ولامَ الذين اتهموه بالسّرقة، فجاء الوحي يعاتبه عن هذا الموقف في سورة النساء الآية: ١٠٥- ١١٤»[١].

ومن ذلك أيضًا عندما اهتم النبي عليه السلام في بداية دعوته بالضعفاء والمساكين والعبيد، وأعرض عن كبراء القوم من قادة قريش المعتزّين بسلطتهم وأموالهم وأولادهم، فاتفقوا أن يُغرو النبي عليه السلام بشيء من حطام الدنيا فقالوا له: «لقد اتَّبعك سفهاؤُنَا وعبيدُنَا، وإنْ جلسنا معك تجرؤوا علينا، فإن أردت أنْ نتبعَكَ وندخل دِينَكَ، فاطرد هؤلاء أو اجعل لنا مجلسًا خاصًّا، واجعل لهُم مجْلسًا آخر، وهمَّ الرسول ﷺ أن يوافقهم على طلبهم، من باب ترغيب قلوبهم»[٢]، فجاء الوحي معاتبًا له وناهيًا إياه عن الاستجابة لهم، وأمره بالبقاء على نمطه في الدعوة مع أتباعه من العبيد والضعفاء والمساكين.

وغيرها من المواطن التي لحق النبي عليه السلام فيها عتاب ولوم وتثريب؛ كعتابه بشأن أسرى بدر، حين أعطى أولويةً لأخذِ الفدية من الأسرى وخلّى سبيلهم، فعاتبه الوحي القرآني عن هذا الموقف، وكذلك في إذنِه للمخلَّفين

(١) عتاب الرسول في القرآن، تحليله وتوجيهه، الدكتور/ صلاح عبد الفتاح الخالدي، دار القلم، دمشق، ص٢٢، بتصرف.

(٢) عتاب الرسول في القرآن، تحليله وتوجيهه، ص٣٤.

بالقعود عن الجهاد بعد ما استنفرهم للخروج إلى غزوة تبوك، بل تجاوز الأمر العتاب إلى النهي كما هو الشأن في حادثة الصلاة على رأس المنافقين وزعيمهم عبد الله بن أُبيّ... إلخ، وغيرها من المواطن التي ورد فيها لوم وعتاب ولا تدل إلّا على أن مصدر الوحي بعيد كلّ البعد عن ذاته البشرية، وأنه ظاهرة غيبية تفوق حدود الفهم ونطاق الإدراكات بدلائل نقلية وحجج عقلية منطقية، لكن عنَت المستشرق يجعله يلقي بهذا وراء ظهره، ليتمسك بنفي الوحي بصورة أو بأخرى.

فتور الوحي رغم الحاجة له ونسيان النبي:

بالإضافة إلى ما سبق من المناقشات التي تنسف القول بنظرية النبوغ من خلال شخصية النبي ﷺ في مقابل حقيقة الوحي القرآني، سنقف موقفًا مع قضايا فتور[1] الوحي تجاه النبي ﷺ الشيء الذي يدلّ بقوّة أن الأمر ليس بيده أو ضربًا من نبوغه كما يدّعي المستشرق، ومن ذلك فتور الوحي بين (اقرأ) و(المدثر) على اختلاف الروايات في مدّة هذا الفتور، لكن ما يهمّنا هو فتور الوحي وانقطاعه حقيقة بين الفترتين، الشيء الذي يدلّ أيضًا أنّ الوحي خارج عن إرادة النبي ﷺ، «إِذْ في ذلك أبلغ ردّ على ما يفسِّر به محترفو الغزو الفكري

(١) هناك من يعبّر عن الفتور بالانقطاع أو التأخّر، لكن في هذا المقام هي مسميات لا مشاحة فيها، وكلّها تؤدي الغاية المرجوّة في هذا الطرح.

الوحيَ النبوي من أنه الإشراق النفسي المنبعث لديه من طول التأمل والتكرار، وأنه أمر داخلي من ذاته نفسها»[(١)].

وكذلك فتور الوحي في سورة الضحى، بحيث أصبح الناس في ترقب وسؤال عن الوحي مؤمنهم وكافرهم، وأيضًا فتور الوحي في سورة الكهف بتأخّر آيتين، «وجاء في كتب السيرة أنها نزلت مع آيات أخرى جوابًا على أسئلة تقدّم بها المشركون إلى الرسول ﷺ بغرض التعجيز، فشاء الله له ولأصحابه التثبيت عكس ما أرادوا»[(٢)]. وغيرها من الوقائع فتر فيها الوحي وتأخّر عن النبي، ومن دلالات هذا الفتور؛ أن الوحي لا يمكن بأيّ حال من الأحوال نسبته للنبي.

ومما يزيد الأمر جلاءً في نقد هذه النظرية التي وصفت النبي عليه السلام بالنبوغ والعبقرية، هو نسيانه كباقي البشر، ليأتي الوحي نفسه بتذكيره أمام الملأ -مسلمهم وكافرهم- حول هذا النسيان مقدِّمًا توجيهات وإرشادات لتفاديه في مقام آخر، وحدث هذا الأمر في الواقعة التي سُئل فيها عن ثلاثة أسئلة من لدن

(١) فقه السيرة النبوية، الدكتور/ سعيد رمضان البوطي، دار السلام، القاهرة، بتشارك مع دار الفكر، دمشق، الطبعة الخامسة والعشرون، ١٤١٨هـ= ٢٠٠٠م، ص٦٥.

(٢) الدلالة الدعوية في فتور الوحي عند سيد البرية، أحمد محمد عبد القادر عبد الغني، حولية كلية الدعوة الإسلامية بالقاهرة، العدد ٢٢، المجلد الثاني، ص٤١٠- ٤١١.

نفرٍ أرسلهم أحبار اليهود، فوعدهم أن يخبرهم غدًا، ونسي أن يقول (إن شاء الله)، فتأخّر عنه الوحي ما يقارب خمسة عشر يومًا، حتى شاع أمر هذا التأخير، فأرجف أهل مكة، وقالوا: وعَدَنا محمد غدًا، وحزن الرسول ﷺ لهذا التأخر، فجاء الوحي بالتذكير أن الأمر بيد الله وليس بيد النبي ﷺ فوجب قول (إن شاء الله) في كلّ وعد مستقبلي[1]، ومَن تأمّل هذه الواقعة وجدَها قد اكتنفت دلالات أخرى بالإضافة إلى النسيان، والتي هي أيضًا تأتي في مقام تفنيد النظرية المفسّرة للوحي، وذلك أن هذه الواقعة تضمنت مسألة تأخّر الوحي كما تقدّم معنا الحديث حولها، كما تضمنت أيضًا دلالة قوية هي أن الوحي جاء مرشدًا وموجهًا ومذكرًا للنبي ﷺ بنسبة الأمر لله عز وجل، ماضيه وحاضره ومستقبله.

وغيرها من الأمور التي تعتري شخصية النبي ﷺ والتي تدلّ في مضمونها أن الوحي ليس من عبقريته، وكيف لعبقري -كما تزعم الحركة الاستشراقية- أنْ لا يجعل حظًّا لنفسه فيما يخترعه ويبدعه، كما يُعاتِب نفسه من حين لآخر، ثم ينقطع نبوغه ويفتر بين الفينة والأخرى، والحقيقة أن هذا النبوغ الذي يتمسك به المستشرقون، ما هو إلا افتراء وتشرب للمناهج المادية، ولكن سرعان ما تهون هذه أمام الظواهر الغيبية التي يعلو عرشها الوحي القرآني.

(١) عتاب الرسول في القرآن، تحليله وتوجيهه، صلاح عبد الفتاح الخالدي، ص٩٣- ٩٤، بتصرف.

وعموم القول ختامًا لهذا المطلب، فلو كان لهذه الأقاويل التي يزعم روّادها أنها نظرية طرفٌ من الصحة والحقّ أو شيءٌ من الصدق؛ فما لنا لا نرى حملة الوحي عمومًا، ومدّعي النبوّة خصوصًا، أن ينبثوا بشيء من ذلك، بل نراهم على العكس من ذلك؛ إِذْ ينسبون كلّ ما يأتون به من تعاليم وتشريعات إلى الله عز وجل، ولا يدّعون شيئًا لأنفسهم أو لذويهم، ومن صميم هذا القسم الوحي القرآني الّذي جاء به النبي محمد ﷺ؛ إِذْ يصرّح بأنّ كلّ ما أتى به من الحقائق والأخبار والمعاني والأَحْكَامِ والحِكَمِ، مّما أوحى به الله سبحانه له، وليس من عنديته، بل صرح أيضًا عليه السلام أنّ ما جاء به الأنبياء قبله أنه أيضًا من عند الله عز وجل، وهذا إن دلّ فإنما يدل على شيء واحد؛ أنّ الأنبياء والرسل متصلون بجهة واحدة وهي التي اصطفتهم واختارتهم للوحي.

المطلب الثالث: نظرية النبوغ؛ نقد من خلال بيئة المستشرقين:

لا شك أنّ رصد وتتبع نتَاج الحركة الاستشراقية تجاه تفسير الوحي، له أثرٌ بالغ في نقد مواقفها، وخاصةً نظرية النبوغ، بل يجعل هذا النقد أكثر قوة وعمقًا، وقد برز من خلال تتبع نتاج المستشرقين تجاه تفسير الوحي القرآني، ما يمكن إجماله في أمرين؛ **أولًا**: تضارب آراء المستشرقين في فهم ظاهرة الوحي. **ثانيًا**: ظهور عدد من المنصفين لظاهرة الوحي، ويأتي التوضيح أكثر فيما يلي:

تضارب آراء المستشرقين في فهم ظاهرة الوحي:

إنّ تجاسر المستشرقين على دراسة الوحي القرآني وتنافسهم نحو نفيه، جعلهم ينقسمون لأقسام عدّة، يمكن ردّها إلى قسمين رئيسين؛ **الأول**: قسم نفى الوحيَ مطلقًا، مؤكّدًا قوله أن لا وجود لهذا الوحي. **والقسم الثاني**: أثبت الوحيَ لكن نسبه إلى النبي ﷺ، نافيًا أيّ جهة خارجة عن عالم المادة والتجربة. وانطلاقًا من هذين الاتجاهين تفرّعت مواقف ورؤى كثيرة جدًّا، ولا تدلّ إلّا على شيء واحد إلا وهو هشاشة الأصول والقواعد التي تبنى عليها هذه المواقف تجاه وحيٍ خالدٍ أبهرَ البشرية قاطبة.

ومما دار في فلك خلاف المستشرقين خلال تفسير ظاهرة الوحي، وقد سبقت الإشارة له، القول بالصرع والمرض النفسي، والقول بأنّ الوحي ليس إلا مرتقًى عاليًا من الشعوذة والتكهن، ثم القول بأن الوحي تجربة دينية راسخة من

الصفاء عاشها النبيّ، وادّعاء أنّ الوحي ليس إلا من كتبٍ لليهودية والمسيحية، والقول أيضًا بتجلي الأحوال الروحية، وكذلك القول بما نحن بصدد دراسته، وهو القول بالنبوغ والعبقرية المفرطة.

وإنّ تضارب أقوال المستشرقين حول ظاهرة الوحي، واختلاف التفاسير حولها، برزت معه عدّة أمور، أهمها: تغيّر مواقفهم تجاه الوحي بين الفينة والأخرى، حتى عدّت لبعض المستشرقين أقوال قديمة وأقوال جديدة في تفسير الوحي، لكن كلّها في مهبّ الريح، ما دامت لم تتحلَّ هذه الأقوال بالموضوعية العلمية، كما برز مع هذا الخلاف الخاصّ في تفسير الوحي ظاهرة الردود داخل الحركة الاستشراقية، والتي كان لها وقع وأثر في بيان عيوب هذه النظرية فضلًا عن باقي مواقف المستشرقين حول الوحي القرآني.

بروز فئة المستشرقين المنصفين:

إنّ تضارب أقوال المستشرقين حول ظاهرة الوحي تنظيرًا وتفسيرًا، كان بمثابة أرض خصبة عند بعض المستشرقين الأكاديميين، وجعلوها مدخلًا أساسًا لدراسة الوحي بموضوعية تامة، بعيدة عن المنطلقات الانتمائية المستوطنة في الفكر الغربي، التي وسّعت دائرة الخلاف حول الوحي وتفسيراته، فلم يسعهم إلا إدراك حقيقة الوحي، وأقروا بصدقه، وأنه ظاهرة غيبية خارجة عن المادة والتجربة، والعديد من الأعمال العلمية الفردية والجامعية تميزت بالموضوعية العلمية والتجرد القبلي.

ولم يكتفوا بالاعتراف فقط بل حملتهم الحقيقة العلمية، بأن تكون لهم وقفات تجسّدت في كتابات تدلّ على صدق النبوّات وإثبات الوحي وأن هناك جهة خارجة عن إدراك البشرية، وهو عالم الغيب، وأن ما جاء به النبي عليه السلام لا علاقة له بالنبوغ أو عبقرية لا من قريب أو من بعيد، فيقول المستشرق **إدوارد مونتيه**: «**كان محمد نبيًّا صادقًا، كما كان أنبياء بني اسرائيل في القديم، كان مثلهم يؤتى الرؤيا، ويأتيه الوحي**»[(١)].

كما سعت المستشرقة الإيطالية **لورا فيتشيا** للتصدي[(٢)] للأقلام المتجهة صوب الوحي بغية التشكيك والإبطال، بحيث دافعت عن النبي عليه السلام ودحضت كلّ الادعاءات التي تُنشر عنه. حيث قالت: «قام أعداءُ الإسلام الألدّاءُ الذين أعماهم الحِقدُ والتعصب، واتهموا رسولَ الله ﷺ، ذلك الرجلُ النبيلُ الذي كان يُنظَرُ إليه قبلَ الرسالةِ نَظرةَ إكبارٍ وإجلالٍ من جميع مواطنيه لِمَا تَحلَّى به من الأمانةِ والسجايا الكريمة، وكانت هذه التهمةُ التي رَموه بها مما لا يَقبَلُه عَقل، ولا يُمكنُ أن يُسلِّمَ به عاقل، فضلًا عن أنها لا تقومُ على أيّ أساس»[(٣)].

---

(١) انظر: الرسول في الدراسات الاستشراقية، عن محمد الشريف الشيباني، دار الحضارة، بيروت، ص١١٧.

(٢) المستشرقة الإيطالية لورا فكشيا، وقد عُرفت بدفاعها عن الرسول ﷺ في كتاباتها بحماس مشهود.

(٣) شراب النسيم مع النبي الكريم، للدكتور/ السيد بن حسين العفاني، القاهرة، دار العفاني، الطبعة الأولى. ١٤٢٧هـ= ٢٠٠٦م، (٤/ ٢٦٥).

ووقف **حنّا** المستشرق السويسري مواقف عزيزة في الدفاع عن النبي عليه السلام بعد دراسة الوثائق التاريخية، كما أكّد المستشرق **جون وانتبورت** أن الدراسات التاريخية تسقط كلّ الأقاويل التي أذاعها أعداء الإسلام بقوله: «**بقدر ما نرى صفة محمد بعين البصيرة والتروّي في المصادر التاريخية الصحيحة...وقد جاء بشر لا يسعنا أن نتهمه فيه**»[(١)].

كما يبين المستشرق **كارل**[(٢)]: «**لقد أخطأ مَن قال إنّ نبيَّ العرب دجّالٌ أو ساحر؛ لأنه لم يفهم مبدأه السامي، إن محمدًا** ﷺ **جديرٌ بالتقدير، ومبدؤه حريّ بالاتّباع، ليس لنا أن نحكم قبل أن نعلم، وإن محمدًا خيرُ رجل جاء إلى العالم**

(١) محمد والقرآن، وانتبورت، الرسول في الدراسات الاستشراقية، عن محمد الشريف الشيباني، ص٣٩٤.

(٢) العلّامة كارل هينرش بكر الألماني: مستشرق ألماني، وُلد في بلدته (لاكازا) من ألمانيا الغربية عام ١٨٧٦، وتوفي ١٩٣٧، له عِدة مؤلَّفات، وهو المؤسسُ لمجلة (العالم الإسلامي)، وكان يفضِّلُ الأدبَ الإسلاميَّ على الأدب المسيحي. قال في كتابه (الشرقيون): «لقد أخطأ مَن قال: إن نبيَّ العرب دَجَّالٌ أو ساحر؛ لأنه لم يَفهم مَبدأَه الساميَ، إنَّ محمدًا جديرٌ بالتقدير، ومبدؤه حَرِيٌّ بالاتّباع، وليس لنا أن نحكمَ قبلَ أن نَعلم، وإن محمدًا خيرُ رجل جاء إلى العالَم بدينِ الهدى والكمال، كما أننا لا نرى الديانة الإسلامية بعيدة عن الديانة المسيحية». انتهى من سلسلة شراب النسيم مع النبي الكريم، للدكتور/ السيد بن حسين العفاني، (٤/ ٢٩٤).

بدِين الهدى والكمال، كما أننا لا نرى الديانة الإسلامية بعيدة عن الديانة المسيحية»[(١)].

وممن سعى لدَحض كُبَراء هذه النظريات المستشرقُ الروسي **جان ميكائيليس الروسي**[(٢)] (١٧١٧- ١٧٩١م)، وكذلك المستشرقُ الفرنسي دينيه، كما اعترف بصدق رسالته وتأكيد نزول الوحي إليه ﷺ كلٌّ من المستشرق: توماس كارليل، والكونت كاستري، والباحث الأروبي سينكس، والفيلسوف الروسي تولستوي، والبروفيسور ليك، والإنجليزي توماس آرنولد، وغير هؤلاء من المستشرقين المنصفين الذين عرفوا الإسلام معرفة خاصّة، ولم يُكِنُّوا له الكُرْهَ والجحودَ ابتداءً؛ فقط عن الطريق العلم الحقّ والموضوعية والانصاف، مما جعلهم يُبرِزون عواطف الوُدّ الصادق تجاه قضية الوحي القرآني خاصّة والإسلام عامة، مما جعلهم أيضًا يحترمون المسلمين باعتبارهم أمة واحدة

(١) الرسول في الدراسات الاستشراقية، محمد الشريف الشيباني، ص٣٩٤.

(٢) العلّامة جان ميكائيليس الروسي: مستشرق روسي، ولد في بلدته (بروا) ١٧١٧، وتوفي ١٧٩١، له تصانيفُ في أصول العربية وآدابها وآداب السريانية والعبرانية، له مؤلَّفات عدَّة. وقال في بعض مؤلفاته في (أصول اللغة العربية) واسمه (آداب اللغة العربية): «إن الدينَ الإسلاميَّ له فضلٌ عظيمٌ على الشرق؛ لأنه أكسَبَهم حضارةً ذاتَ قيمة. وفضلُ مَن جاء به أعظمُ، لأنه عَرَضه عليهم فرفضوه، وتحمَّل في سبيله المَضَضَ وكابَدَ كثيرًا، ولقد كان فقيرًا يتيمًا مضطهدًا، ولدى ثباتِه أَخذ النتائجَ الكافيةَ في أداءِ رسالته التي هي مدنيَّة وحضارة». انتهى من سلسلة شراب النسيم مع النبي الكريم، للدكتور/ السيد بن حسين العفاني، (٤/ ٣٨٨).

بتأطير الوحي المتجسد في الخطاب القرآني، وهي العواطف التي نبعت من أعماقٍ نبيلة حقيقة، وثاروا لَمّا قرَؤوا عن العداء المسيحي واليهودي لأمة الإسلام، فحملوا لواء الدفاع عن ملامح حياة المسلمين التي عرفوها بحقّ من خلال العلم، رغم عدم إسلام العديد منهم.

الخاتمة:

وفي ختام هذه الرحلة العلمية التي سعت لمقاربة نظرية النبوغ المفسرة للوحي القرآني في المنظور الاستشراقي، من خلال دراسة تحليلية نقدية، بتنويع أوعية التحليل والنقد بين العقل والنقل، فقد استطاع بحثنا هذا التوصل إلى جملة من المخرجات سأورد أهمّها على شكل نتائج، شاكرًا جهود السابقين، مؤملًا من هذا العمل إفادة الباحثين وكلّ المهتمين، ومن أبرز النتائج التي أفضى إليها هذا العمل ما يأتي:

- أنّ موضوع الوحي القرآني من أكثر المواضيع التي شغلت بال المستشرقين مما جعلهم يتناولونه بوفرة في أبحاثهم ودراساتهم الأكاديمية والمستقلة، وتزداد الجهود المبذولة نحوه يومًا بعد يوم بغية نفيه، باعتباره هو المنطلقَ الأول والحجر الأساس الذي يُبنى عليه الدين الإسلامي، وخاصة أنّ هناك تلازمًا وترابطًا بين الوحي والإسلام، فإثبات الوحي هو إثبات للإسلام، ونفي أحدهما هو نفي للآخر.

- أنّ المستشرق يستند في تفسير الوحي القرآني للمناهج الوضعية والمقاييس المادية؛ مما خلّف تفسيرات عدة تتناقض فيما بينها، وكلّها تحومُ حول غاية واحد؛ إمّا نفي الوحي مطلقًا، أو الإبقاء على معناه وإفراغه من مضمونه بنسبته للنبي ﷺ.

- أن نظرية النبوغ والعبقرية التي جاء بها المستشرق لتفسير ظاهرة الوحي، ما هي إلا إرث قديم في صبغة علمية جديدة تدّعي الموضوعية والحياد، ومدعومة بالانبهار التام أمام مجال الحسِّي المادي، الذي سرعان ما خلّف جحودًا عارمًا تجاه كلّ ما هو غيبي يفوق محدّدات الفكر البشري وإدراكاته، والوحي ليس ببعيد عن هذا الجحود.

- أنّ المرتكزات التي قامت عليها نظرية النبوغ بغية القول في الوحي القرآني، هي مرتكزات وهمية غايتها التضليل، وعقيمة للغاية لا تجدي نفعًا حقيقيًّا يُذكرُ أمام الوحي القرآني سوى تخرّصات وسخافات تتعاقب في خضمّها أجيال المستشرقين، ولا تزيد مع مرور الوقت -المرتكزات- إلا وهنًا على وهنٍ أو بالأحرى تزدادُ بلادةً في واقع العلم والمعرفة الموضوعية، وليس في معترك الخلفيات والانتماءات.

- أن الوحي القرآني أَولى سبيل لنقد نظرية النبوغ وبيان عورها من خلال ما اكتنف في طياته من أمور يستحيل بالإجماع الإحاطة بها أو الإخبار عنها بواسطة العقل البشري محدود السعة، ومن ذلك الإخبار بالأمم والحضارات التي تضرب في عمق التاريخ البشري، الإخبار بالوقائع والأحداث المستقبلية على جهة القطع بوقوعها، بث الوحي جملة من المعارف والعلوم التي لم يُتَوَصَّل لبعضها إلا حديثًا.

- أن ما حدث لشخصية النبيّ ﷺ مع الوحي القرآني من أقوى المسالك لنقد نظرية النبوغ، بحيث لم يكن لشخصيته عليه السلام حظّ في الوحي، كما أن الوحي عاتبه في العديد من الوقائع والحوادث وخالف اختياراته، كما انقطع عنه عدة مرّات، بل اعتراه النسيان ليأتي الوحي مذكرًا وموجهًا.

- بروز التضارب في أقوال المستشرقين ومواقفهم تجاه الوحي القرآني، مما خلّف معتركًا داخل الحركة الاستشراقية نفسها، الشيء الذي برز معه فئة من المستشرقين حملهم الحياد العلمي للإقرار بِكُنْهِ الوحي القرآني خاصّة، وأنه حقيقة لا ينكرها إلا جاحد، كما أقرّوا بالنبوّة والرسالات عامة، بل خَطّت أناملهم أقوالًا ومواقفَ تجاوزت موضع الاعتراف إلى صف الدفاع عن الوحي والنبوّة.

مسرد المصادر والمراجع

١. القرآن الكريم.

٢. أبستمولوجيا المعرفة الكونية إسلامية المعرفة والمنهج، **محمد أبو القاسم حاج حمد**، دار الهادي، الطبعة الأولى، ١٤٢٦هـ= ٢٠٠٤م.

٣. أثر الاستشراق في الفهم الحداثي لمباحث تأريخ القرآن وعلومه، **كاظم جواد الحكيم**، من إصدارات المركز الإسلامي للدراسات الإستراتيجية، العراق، الطبعة الأولى ١٤٤٣هـ= ٢٠٢١م.

٤. إدوارد سعيد، الاستشراق، ترجمة الدكتور محمد عناني، دار رؤية للنشر والتوزيع، الطبعة الأولى، القاهرة، ٢٠٠٦م.

٥. إرشاد الساري لشرح صحيح البخاري، **شهاب الدين القسطلاني**، دار الفكر، بيروت- لبنان، ١٤٢١هـ= ٢٠٠٠م.

٦. الإلهيات على الهدى؛ الكتاب والسنّة والعقل، حسن مكي العاملي. مؤسسة الإمام صادق، الطبعة الخامسة، ١٤٢٣هـ.

٧. إنتاج المستشرقين وأثره في الفكر الإسلامي، **كتاب مالك بني**، دار الرشاد، بيروت، طبعة ١، ١٩٨٧.

٨. أنواع الوحي وآراء المستشرقين، **عبد الجليل شلبي**، ضمن بحوث مؤتمر السيرة والسنّة.

٩. بحوث وقراءات نقدية في كتاب تاريخ القرآن لتيودور نولدكه، من إصدارات المركز الإسلامي للدراسات الإستراتيجية، الطبعة الأولى، ١٤٤٣هـ= ٢٠٢٢م.

١٠. تاريخ القرآن، ثيودور نولدكه، **ترجمة: جورج تامر**، مؤسسة كونراد أدناور، بيروت، الطبعة الأولى ٢٠٠٤م.

١١. تكوين النصّ القرآني النبوة والوحي والكتاب، **قاسم شعيب**، الانتشار العربي بيروت، لبنان الطبعة الأولى ٢٠١٦م.

١٢. الدلالة الدعوية في فتور الوحي عند سيد البرية، الدكتور أحمد محمد عبد القادر عبد الغني، حولية كلية الدعوة الإسلامية بالقاهرة، العدد ٢٢.

١٣. الرسول في الدراسات الاستشراقية، **محمد الشريف الشيباني**، دار الحضارة، بيروت.

١٤. سلسلة شراب النسيم مع النبي الكريم، للدكتور السيد بن حسين العفاني، القاهرة، دار العفاني، الطبعة الأولى ١٤٢٧هـ= ٢٠٠٦م،

١٥. الظاهرة القرآنية، مالك بن نبي، ترجمة: عبد الصبور شاهين، دار الفكر، دمشق- سوريا، الطبعة الرابعة ١٩٨٧م.

١٦. فقه السيرة النبوية، الدكتور سعيد رمضان البوطي، دار السلام القاهرة، بتشارك مع دار الفكر دمشق، الطبعة الخامسة والعشرون، ١٤١٨هـ= ٢٠٠٠م.

١٧. القرآن الكريم في دراسات المستشرقين؛ دراسة في تاريخ القرآن، ونزوله وتدوينه وجمعه، **مشتاق بشير الغزالي**، دار النفائس، بيروت- لبنان، ١٤٢٩هـ= ٢٠٠٨م.

١٨. الوحي القرآني بين الفكر الإسلامي والفكر الاستشراقي والحداثوي، يعقوب حسن بريد الميالي، مجلة الدراسات الاستشراقية، العدد ١٧.

١٩. الوحي المحمدي، **محمد رشيد رضا**. مطبعة منار مصر، الطبعة الثالثة، ١٣٥٢هـ.

٢٠. كتاب تاريخ القرآن، للمستشرق الألماني تيودور نولدكه: ترجمة وقراءة نقدية، الدكتور رضا محمد الدقيقي، الطبعة الأولى، الدوحة ١٤٣٠هـ= ٢٠٠٩م.

٢١. مباحث في علوم القرآن، **مناع القطان**، مؤسسة الرسالة، بيروت، الطبعة الأولى ١٩٩٥م.

٢٢. مناهج المستشرقين البحثية في دراسة القرآن الكريم، الدكتور حسن عزوزي، بحث منشور على الإنترنت.

٢٣. مناهل العرفان في علوم القرآن، **محمد عبد العظيم الزرقاني**، دار الفكر العربي، القاهرة، الطبعة الأولى ١٩٩٥م.

٢٤. موقع مجلة الإعجاز الدولية، مقالة الإعجاز التاريخي في القرآن والسنّة، للدكتور محمد بورباب.